

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والاربعين)

د. نعيم فرح
جامعة دمشق

١ - في المصادر التاريخية :

لم تلق المصادر السورية (السريانية) حتى يومنا هذا الاهتمام الجدير بها لدى المؤرخين وعلماء الآثار . ويرتبط هذا الامر الى حد كبير بصعوبة الوصول الى هذه المصادر بأشكالها الاصلية وبندرة ترجماتها . ومع ذلك فالمؤلفات التاريخية السورية (السريانية) تعتبر من مصادر الدرجة الاولى حتى عصر ازدهار الآداب العربية في العصر العباسي . ان الاسفار السورية (السريانية) بالنسبة للقرنين الخامس والسادس تحتوي على مواد ومعلومات فريدة من نوعها ، وهذه المواد تعطي امكانية الكشف عن العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لبيزنطة ويران . ففي العصر الفارسي الساساني لعب السوريون دورا هاما وبارزا في العلاقات المتبادلة بين الدولتين العظميين ، حيث كانت لغتهم السريانية اللغة الدبلوماسية للشرق الأدنى . ورغم ان المصادر السورية (السريانية) ركزت على الاحداث السياسية الخارجية بالدرجة الاولى ، فهي تقدم جملة من المعطيات التي لها اهمية كبيرة بالنسبة لتحديد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تكونت في سورية في تلك المرحلة .

في مجموعة من المصادر التاريخية التي تعتبر مادة للبحث الذي بين ايدينا ، فان اولى المراتب تعود لاسفار العمودي السريانية ، التي تمثل مصدرا ممتازا

بالنسبة لتاريخ العلاقات بين بيزنطة وإيران (في عصر فيروز ٤٥٩ - ٤٨٤) وابنه قباد (٤٨٨ - ٥٣١) ، كما تقدم طبيعتها المحلية مادة هامة عن حياة المقاطعات السورية التي رزحت تحت السلطة البيزنطية وكانت مقطعة اصطناعيا من المقاطعات التي تقطنها قبائل موحدّة عرقيا وحضاريا (عربية آرامية) وبقيت تحت سلطة الفرس الساسانيين . ان الصورة الكثيرة لاضطهاد الجماهير الكادحة السورية واستغلالها ، التي تكشف هذه الاسفار السريانية النقاب عنها ، تؤكد الوصف الذي وصفه انجلس للامبراطورية الرومانية - البيزنطية اذ قال : « تحولت الدولة الرومانية الى آلة معقدة عملاقة ، وذلك لامتناس خيرات رعاياها . فالضرائب الحكومية والجزية المتعددة الانماط قد أغرقت جماهير السكان في بحر من الفقر المتزايد ، وهذا الظلم ازداد واصبح لا يطاق بفعل ابتزاز الحكام وجامعي الضرائب والجنود » (انجلس ، اصل العائلة ونشوء الملكية الخاصة والدولة) . يتفق هذا الوصف الذي قدمه انجلس مع ما تذكره الاسفار السورية (السريانية) التي اعطت مثل هذه الصورة الواضحة لممارسات الابتزاز وأعمال النهب ، وللفقر والجوع الذي عانى منه الكادحون السوريون .

ويكاد المؤرخون الرسميون لا يتطرقون الى هذه الجوانب من حياة الجماهير الشعبية الكادحة . ان حياة القسطنطينية الصاخبة عند جماعة من المؤرخين البيزنطيين البارزين قد ابتلعت كل قدراتهم الروائية . فخلف بهارج وزخارف البسة البلاط وضوء الدسائس الدموية الصاخبة ذهبت قضايا الجماهير الفقيرة الكادحة في زوايا النسيان . ومع ذلك تعود صفحات « التاريخ السري » (الذي كتبه بروكوبوس القيساري في القسطنطينية) المطلية بالزجر والبؤس الى مجموعة الوثائق النادرة . فهو يكشف شرور العصر (القرن السادس) بشكل تبدو فيه القدرة الظاهرية والابهة لحكم جستنيانوس الاول باهته ذابلة لا تمثل شيئا امام العري والعوز والفقر الذي يتحدث عنه هذا التاريخ « السري » . لكن اسفار المقاطعات السورية ومؤرخيها يقدمون مادة اكثر غنى من التاريخ السري في هذا المجال . فمصالحهم تحمل طبيعة محلية ، كما انهم يتحدثون عن قضايا معيشية واقتصادية تتيح فرص تلمس حلقات جديدة في تطور اشكال الحياة الاقتصادية - الاجتماعية . وتقدم الاسفار التاريخية السورية (السريانية) مادة من هذا النوع . فهي تعطي صورة واضحة عن حياة العاملين في الارض ، ومنهم العبيد (والكلون) والفلاحون الاتباع الذين يتحملون كل اعباء العمل في الحقول والبساتين والكروم ، ويئون من وطاة الضرائب والفرائض وقرصنة الجنود المرتقة والنهب الذي يمارسه موظفو الدولة . وقد اشار انجلس الى استغلال السلطات الرومانية - البيزنطية لسكان المقاطعات الخاضعة لها بالكلمات التالية : « كان نظام الدولة الرومانية - البيزنطية أسوأ من الفوضى اللدودة . أما (البرابرة) ،

الذين بدأت الدولة تحمي المواطنين منهم ، فقد انتظرهم المواطنون كمنقذين «(انجلس، المرجع نفسه) . ونتأكد من صحة هذا الوصف في قصص البؤس التي تقدمها الاسفار السورية ، وفي النقد اللاذع في جملة من سطور كتاب بروكوبيوس «الحرب الفارسية» .

تتضمن مخطوطة يشوع العمودي (التي تحمل العنوان : « اخبار السنوات العابرة ») موضوعين اساسيين هما : تاريخ حملة « الطاغية البشري » الملك الفارسي قباد ، وقصص المحن والمصائب التي حلت بمنطقة ما بين النهرين السورية . الموضوع الاول يقدم مادة للتاريخ السياسي لمنطقة ما بين النهرين السورية . والموضوع الثاني يقدم مادة لوصف نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وتعتبر اسفار يشوع العمودي (باللغة السريانية) من المصادر التي يجبان تقوم بصورة متميزة ، لان مؤلفها يتحدث عن الاحداث التي اشترك فيها وعاشها ، أو كان معاصرا لها . ووصلت هذه الاسفار الى ايامنا هذه في قائمة وحيدة كجزء متمم لما يسمى : بـ «اسفار ديونيسيوس التلمحري» التي يعود تاريخها الى القرن التاسع الميلادي (توفي سنة ٨٤٥ م) . لقد ضمت اسفار يشوع العمودي كلها الى اسفار ديونيسيوس التلمحري ، فاصبحت كلا موحداً (١) . ان مخطوطة ديونيسيوس التلمحري التي تدخل فيها اسفار يشوع العمودي هي احدى الكنوز التي وجدت في مكتبة دير السريان بمصر ، الذي يقع في برية اسقيط غرب القاهرة . والمعلومات حول هذه المخطوطة مزدوجة . ففي سجل المخطوطات الشرقية للفاتيكان يؤكد السمعاني بانها تعود الى المخطوطات التي جلبت من تكريت في سنة ٩٣٢ على يد رئيس الدير موسى النصيبيني (من مدينة نصيبين السورية) الذي جمع هذه المكتبة (٢) . وفي رواية اخرى للسمعاني ذاته يقول ان هذه المخطوطة قد نسخت مرة ثانية في دير السريان بمصر في القرن التاسع او العاشر (٣) ، وهذا الاحتمال اكبر . هذه الاسفار لم تكن معروفة لدى الكتاب السوريين في العصور الوسطى . فلا ميخائيل السوري (توفي سنة ١١٩٩ م) ولا ابن العبري (توفي سنة ١٢٨٦) يعرفانها ، بل اعتمدا في كتاباتهما على الاسفار المنسوبة لزكريا الميتيليني (اللطي) . ولم يعرفها ايضا المؤرخ اغاببوس المتنجي (الذي كتب بالعربية) ، بل اقتبس اخبار القرن السادس عن زكريا اللطي (٤) . واول من اشار الى مخطوطة يشوع العمودي وغيرها من كنوز الادب السوري (السرياني) هو السمعاني ، العالم الماروني الذي نظم في مطلع القرن الثامن عشر « المكتبة الشرقية » الفنية بمثل هذه الكنوز . فالفصل السادس والعشرون من المجلد الاول (من المكتبة الشرقية) يحتوي على مقتطفات من اسفار يشوع العمودي باللغة اللاتينية (٥) . ان اشارة السمعاني الى مخطوطة يشوع العمودي ، اضافة الى ترجمة بعض المقتطفات منها والتعليقات اصبحت معطيات تساعد على استخدام اسفار العمودي كمصدر هام لدراسة تاريخ حروب ايران مع بيزنطة في اواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس .

لكن عدم كمال النص لدى السمعاني وغياب النص السوري (السرياني) ، اضافة الى الثغرات الكثيرة ، قد دفع بولين مارتين الى نشر الاصل السرياني لمخطوطة يشوع العمودي مع الترجمة الفرنسية الكاملة له واجراء بعض التصويبات (٦) . ولما كان هذا النص المنشور والمترجم الى الفرنسية تنقصه الدقة التامة ، فقد اخذ العالم البريطاني رايت على عاتقه نشره مرة ثانية . لقد صحح رايت جملة من الاخطاء والنواقص التي ارتكبها سلفه مارتين ونشر النص السرياني مع ترجمته الانكليزية (٧) . وتحدث رايت عن صعوبة الترجمة قائلا انه حاول نقل صورة النص الاصلي وروحه ، فترجمه بالاسلوب الانجيلي الذي يناسب هذا النوع من الاسفار التاريخية . وكانت الملاحظات القليلة التي وضعها رايت تحت السطور موضحا التسميات الجغرافية ذات أهمية كبيرة . لكن اسفار يشوع العمودي في طبعة رايت بقيت بصورة اجمالية دون تفسير . وفي سنة ١٩٤٠ قدمت الباحثة السوفيتية نينا فيكتوروفنا بيغوليفسكايا ترجمة روسية لمخطوطة يشوع العمودي من السريانية مع بعض الملاحظات والتصويبات (٨) .

تتضمن اسفار يشوع العمودي موضوعين اساسيين هما : الحرب البيزنطية - الفارسية ، والنكبات التي اصاب منطقة ما بين النهرين السورية . لكن الموضوع الثاني اكثر صعوبة بالنسبة للتحليل ، لانه متداخل في موضوع الحرب ويفدو من وقت لآخر الموضوع الاساسي على حساب الموضوع الاول . بالنسبة للمعلومات عن العلاقات البيزنطية - الفارسية في الحقبة السابقة لعصره ، فقد استطاع المؤلف استخدام «الكتب القديمة» التي يتحدث عنها معتبرا اياها احدي مصادره التاريخية . وبالنسبة للمعلومات عن الاحداث المعاصرة فقد اشار المؤلف الى الاخبار الشفهية ، فهو يعرف الكثيرين من اولئك الذين يعملون مترجمين في السفارات البيزنطية والفارسية ، ومعظمهم من السوريين . اما في مسائل الحياة الداخلية لمنطقة ما بين النهرين السورية ، فالمؤلف يتحدث بالدرجة الاولى عن الامور التي كان شاهدا عيانا فيها . وفي حالات اخرى يعتمد على الراي العام الاجتماعي ويستشهد به ، انطلاقا من ان الحقائق المعطاة معروفة من قبل الجميع . فبعد ان يروي الحقائق المؤلمة والمكربة يؤكد المؤلف على صحتها من خلال اثباتها من قبل كافة السكان في مدينة الرها .

كتبت اسفار يشوع العمودي على شكل رسائل ، فهي جواب على عرض احد الاشخاص (يسميه المؤلف : الراهب الارشمندريت سرجيس) الذي توجه الى المؤلف طالبا منه وصف الاحداث التي حصلت خلال السنوات الاخيرة . ويقول المؤلف انه بدا الكتابة دون رغبة ، لانه غير واثق من قدرته على تلبية الطلب ، كما انه لا يملك موهبة حل هذه المسألة المهمة ، التي لم يوفق في حلها اولئك الذين هم « اكبر منه » . من

هو المقصود بهذا التلميح ؟ . الم يقصد المؤلف اثنين من معاصريه اللذين نالا شهرة المجد بفضل انتاجهما الادبي ، وهما يعقوب السروجي (ت : ٥٢١ م) وفيلكسينس المنبجي (ت : ٥٢٣) اللذان يذكرهما في اسفاره . بالاضافة الى دوافع التواضع فالمؤلف يشير الى عدم قدرته على « خلط » النصائح بالروايات والقصص المحزنة التي يتحدث عنها . وهذه الصفة الاخيرة من صفاته تستوجب الشكر الجزيل من جانب المؤرخ . وبصرف النظر عن جميع التحذيرات ، فالمؤلف وفق الى حد ما في اداء مهمته . لقد حدا حذو المؤرخين البيزنطيين ورتب السنوات وبعض التواريخ ، « وذلك كيلا يسيء الى الرواية ويشوهها » . لقد بدا له ان الكتابة عن الاسعار وغلاء المعيشة في زمن المجاعة غير مفيدة . لكن الطلب الخاص الذي تقدم به مراسله سرجيس (رئيس الدبر) دفعه للتنازل عن موقفه والاعلام عن هذا الموضوع « غير المقبول بالنسبة للادب الرفيع » (حسب رأي المؤلف) . وفي حديثه عن القضايا البيزنطية والفارسية ، نجده يستخدم مفردات هذه اللغة وتلك . هناك امور كثيرة تشير الى انه كان يعرف اللغة اليونانية . اما اللغة الفارسية ، فان لم يكن يعرفها ، فهو على أية حال كان مطلعاً على مصطلحاتها وعلى التقاليد ووجهات النظر والتيارات الاجتماعية المعاصرة في ايران (كالحركة المزدكية على سبيل المثال) ، حيث اطلق كلمة « هرطقة » على التعاليم التي بشر بها مزدك .

من هو هذا المؤلف الذي رسم الصورة الواضحة للحياة التي عاصرها ؟ . لم يتحدث عنه ولم يذكره بشيء احد من معاصريه . فالاسفار سميت باسم يشوع العمودي حسب الملاحظة الموجودة في وسط النص الذي كتبه الناسخ اليسع (الذي كان راهبا في دير زوقنين ونسخ هذا الكتاب عن الاصل) . وينسب الراهب اليسع هذا الكتاب الى يشوع العمودي الذي كتب « اخبار السنوات العابرة » عن النكبات التي حلت بمنطقة ما بين النهرين ، وعن الضرر الذي الحق به « الطاغية البشري » - القيصر الفارسي (٩) . لم يكسب النقد كثيرا اذا ما اعتبر هذه الاسفار بمثابة حاشية منسوبة الى مجمل التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري ، كما قال الباحث الفرنسي نو (١٠) ، او اذا نسبها الى شخص مجهول . ليكن المؤلف شخصا غير يشوع العمودي ، لكن هذه الاسفار قد نسبت اليه .

تشير نصوص الاسفار الى ان المؤلف كان كاهنا او راهبا . ان طريقة توجه الارشمندرت (رئيس الدبر) سرجيس نحوه ، واحترام المؤلف واصفائه له اثناء الاجابات ، والنزعة الكنسية التي تبدو في النصوص بكل جلاء ووضوح ، كل ذلك يدل على ان المؤلف كان من رجال الدين الصفار . فالمؤلف يؤكد دوما اسس ومنطلقات النظام الكنسي . وهو من حيث المذهب مونوفيزيتي يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ،

علما بأنه لم يذكر في أي مكان ما يدل على مذهبه . واطلق الباحث جيلزر على يشوع العمودي لقب « المونوفيزيتي السري » (١١) . وبالرغم من أن يشوع لم يخف عواطفه نحو المونوفيزيتيين ، فهو ينتمي إلى المعتدلين ويقف موقفا محبا للسلم . فالمشاعر الطيبة التي أبداهها المؤلف نحو الامبراطور البيزنطي انستاسيوس عبر صفحات الكتاب قد تبدلت في السطور الختامية ، لان هذا الامبراطور بدل سياسته الدينية في اواخر حكمه واتخذ موقفا عدائيا من المونوفيزيتيين .

ليست هناك معلومات عن ثقافة المؤلف ، لكن قاموسه واسلوبه يدلان على ان ثقافته كانت مدرسية . في سنة ٤٨٩م اغلق الامبراطور البيزنطي زينون «مدرسة الفرس» (مدرسة السوريين النساطرة) في مدينة الرها ، بسبب انتشار النسطورية فيها على نطاق واسع ، فهرب الاساتذة النساطرة الى المناطق التي يحكمها الفرس وواصلوا نشاطهم التعليمي في مدينة نصيبين السورية (قرب القامشلي) التي ازدهرت مدرستها طوال قرون عديدة (١٢) . وكان على المونوفيزيتيين والملكيين الخليدونيين الباقين في مدينة الرها السورية بعد اغلاق مدرسة النساطرة ان يواصلوا تقاليد هذا المركز التعليمي . ويدل على ذلك ان الرها كانت عبر العصور مركزا ثقافيا تخرج منه المثقفون السوريون من ذوي الاتجاهات الدينية المختلفة . لقد نسخ في الرها عدد كبير من المخطوطات ، وهذا ما يؤكد مرة اخرى وجود المدارس التي كانت تعد كوادر الناسخين والكتبة . ومن المحتمل ان يشوع العمودي كان في عداد معلمي المدرسة ، الامر الذي يجعل مخاطبة الارشمندرت له مفهومة . ويتحدث المؤلف ايضا عن بعض الاشخاص فيسميهم « الاخوة من مدرستنا » (١٣) .

يمكن ان يطرح تاريخان بخصوص زمن تأليف هذه الاسفار : سنة ٥٠٧ ، او سنة ٥١٨ . كتبت الاسفار تحت تأثير انطباع مباشر « للنكبات والكوارث » التي ولت منذ فترة وجيزة ، واخر تاريخ لها كان ٢٨ تشرين الثاني سنة ٥٠٦ . اتى النص على ذكر جوستينوس الذي خلف انستاسيوس على العرش البيزنطي ، فمنحه لقب الدوق (الدوكس) دون اية اشارة الى وضعه المستقبلي كامبراطور . لكن الكلمات المتعلقة بسياسة الامبراطور انستاسيوس غير المرغوبة في نهاية حكمه (بسبب معاداته للمونوفيزيتيين) تعود الى سنة ٥١٨ التي توفي فيها ذلك الامبراطور . ويرى الباحث رايت ان هذا الجزء من الفقرة الاخيرة للاسفار عبارة عن حاشية اخيرة اضيفت مؤخرا للاسفار ، في حين ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، ويعتقد الباحث جيلزر ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، لكنه يعترف بان الحاشية مكتوبة من قبل المؤلف نفسه بعد موت الامبراطور انستاسيوس - أي عندما صمم على نشر مؤلفه . ووافق نولدكه على وجهة النظر هذه ، لكنه بدل رأيه فيما بعد وقال ان الاسفار كتبت في فترة متأخرة

عن سنة ٥٠٧ هـ بعض الزمن (١٤) . وطالما ان المؤلف يتحدث عن رفاهية مدينة الرها وعن الهدوء والسلامة التي سادتها بعد النكبات والمصائب التي حلب بها ، نجد ان من الضرورة الافتراض بان ردحا كبيرا من الزمن مضى حتى تمكنت المدينة ومنطقتها من العودة الى صحتها والنهوض على قدميها . وعلى اية حال ليس لدينا اية مبررات نستند اليها في نسب كتابة الاسفار ونشرها الى فترة مابعد سنة ٥١٨ م . ويمكن للمرء ان بأسف فقط لنقطة واحدة ، وهي ان مؤلف الاسفار يشوع العموي لم يحقق رغبته الحارة في الكتابة عن « أزمنة النعم والرخاء » في منطقة ما بين النهرين السورية كما وعد مراسله سرجيس ، او لربما ان مثل هذه الكتابة فقدت بالنسبة لنا كغيرها من كنوز الادب السوري .

ان الراهب او الكاهن ، او ربما معلم المدرسة ، يشوع العمودي لا يعتبر ممثلا للطبقة العليا في الكنيسة . فالاساقفة والبطاركة ورؤساء الاديرة كانوا ينتمون الى المراتب العليا ، كما كانوا من كبار ملاكي الاراضي ويتصرفون دون اية رقابة بأموال الكنائس والاديرة . وعلى هذا فان مصالح هذه الجماعة - القمة - كانت ذات المصالح لدى الاغنياء والوجهاء الاخرين . ففي الاسفار لا نجد اية اشارة تدل على ان المؤلف يتبنى مصالح الطبقة العليا في المجتمع ، بل على العكس ، فعبر الكتاب كله نجده يولي اهتمامه « للفقراء والبسطاء والتعساء » . لقد طالته هو نفسه الاسعار العالية التي فرضت على المواد الغذائية ، فهو يقول : « اننا » نحن « عانينا من غلاء المعيشة . وهو يغضب كائنسان عانى من الرشوة ، ومن التوزيع الظالم لاقامة الجنود البيزنطيين في مدينته . انه اذ يتحدث عن الدعاوى والمخاصمات والمضايقات ، يقف الى جانب الناس « الصغار » المعتدى عليهم والمهانين . ينتمي يشوع العمودي الى رجال الدين الصغار . وكانت حياة الحرفيين والفلاحين اقرب اليه من حياة النبلاء الاغنياء ، لذا كان من السهل عليه فهم مصالح هذه الطبقات الكادحة من الشعب . لكنه يخشى الاحتجاج والتذمر والتمرد . فهو يوبخ « المقدامين » و « الوقحين » الذين يفعلون « ما لا يليق » بممثلي « الشعب البسيط » ، والذين صموا على كتابة احتجاجهم في « مواثيق » وتعليقها في الاماكن العامة داخل المدينة . ان العمل ضد « سلطة كبار الملاكين » يبدو له غير مقبول . ففي كلماته نجده يحاول تسوية الصراخ بين القائد كيليروس وسكان الرها ، لكنه يفعل ذلك دون ثقة او معرفة . فهو لا يجرؤ على التعبير عن ذلك ، وخائف من ان اولئك الذين « يحبون اللوم والعتاب » سينشرون الشائعات بانه يتكلم « ضد القادة » . انه مسلح بوجهة نظر انسانية تجاه الاحداث . فبصرف النظر عن انه من انصار بيزنطة ، كانت ممارسات جنودها في ايران تشير استنكاره . فإبادة جميع الذكور من السكان ، وحرق القرى واتلاف كروم العنب تبدو له اعمالا شنيعة وشائنة . انه يتحدث برعب صارخ عن حقائق « اكل لحوم البشر » .

والمؤلف نفسه يعتبر اخباره صادقة وحقيقية . انه اذ يخشى من ان بعض الحقائق التي اوردها : كالمجاعة المربعة بعد قدوم الجراد ، والطاعون الرهيب ، قد تثير الشكوك لدى اولئك الذين سوف يعيشون « بعده » لذا يؤكد حقيقة كلماته وصدقها بقوله : « ان الاخبار التي اقدمها في هذا الكتاب يشهد على صحتها جميع الناس في منطقتنا » . وبعد التحليل الدقيق لا تظهر لدينا اية شكوك بمصادقية هذه الاسفار .

ولا جدال في ان اسفار يشوع العمودي افضل مصدر بالنسبة لتاريخ الحرب البيزنطية - الفارسية في عهد انستاسيوس وقباذ . لقد حافظ هذا المصدر على النضارة الحية لبعض الحوادث التي لم تفقد العلاقة العامة وتسلسل الاحداث ، ولذا جلب اهتمام بعض الباحثين (١٥) . لكن هناك الكثير من الامور التي تحتاج الى عمل اضافي في هذه المعطيات ، كما تحتاج الى استخدام مصادر اخرى معاصرة لايضاح صورة البحث الذي بين ايدينا .

٢ - في الجغرافية التاريخية لمنطقة ما بين النهرين السورية :

بعد ان احتل الفرس الاخمينيون بابل وعزلوا الاسرة الكلدانية عن عرشها (سنة ٥٣٩ ق.م) تشكلت في المنطقة العربية الممتدة من الخليج العربي الى منابع دجلة والفرات ولاية (ساتراپيا) ادارية واحدة يحكمها وال فارسي وتدعى « ولاية بابل » . وعندما اسقط الاسكندر المكدوني العرش الفارسي الاخميني قسمت تلك المنطقة العربية (في سنة ٣١٠ ق.م) الى ولايتين : الاولى هي ولاية ما بين النهرين (ميسوبوتاميا) ، او ولاية اسيريا (اشور) في الشمال ، والثانية هي ولاية بابل في الجنوب . وفي البدء اطلق المكدونيون اليونانيون على ولاية ما بين النهرين اسم « سيريا ميسوبوتاميا » Syria - Mesopotamia اي سورية الواقعة في ما بين النهرين (دجلة والفرات) . وفيما بعد اختصر اليونانيون التسمية المزدوجة « سيريا ميسوبوتاميا » ، فحذفوا اسم سورية وأبقوا على اسم « ميسوبوتاميا » التي تعني ما بين النهرين ، وذلك تسهيلا لاستعمال اللفظ (١٦) .

وبعد موت الاسكندر المكدوني (في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ق.م) احدث خلفاؤه (في سنة ٣٢١ ق.م) بعض التعديلات الادارية ، فضموا منطقة اديابينا (الواقعة الى الشرق من دجلة والممتدة حتى مدينة اربيل) الى ولاية « سيريا - ميسوبوتاميا » اي الى سورية في ما بين النهرين . وفي عهد الملوك السلوقيين (خلفاء الاسكندر في سورية) انشئت في المنطقة الشمالية الممتدة الى الشرق من نهر دجلة ولاية ادارية

سلوقية منفصلة عن ولاية مابين النهرين ، واطلق عليها اسم « بارابوتاميا » (أي ما وراء النهر) Parapotamia (ذكرها وعين موقعها المؤرخ بوليبيوس (١٦٥ ، ١٦ - ٦٩ ، ٥) (١٧) .

وكان اسم « اوسروينا » قد اطلق على ولاية ما بين النهرين الجنوبية (مركزها الرها) في سنة ١٣٢ قبل الميلاد . ومنشأ التسمية يعود الى ان الملك السلوقي في سورية قد عين في الرها حاكما اداريا على ولاية ميسوبوتاميا الجنوبية شخصا ايراني الاصل اسمه اوسرويا . ورغم ان اوسرويا هذا لم يحكم تلك الولاية سوى خمس سنوات (١٣٢ - ١٢٧ ق.م) فقد التصق اسمه بها في المصادر التاريخية قرونا عديدة . وكان من الاصح ان تسمى باسم « الولاية العربية » ، حيث كان معظم سكانها من القبائل العربية ، كما حكمها ملوك عرب منذ ذلك التاريخ (وقبله) حتى العهد البيزنطي . ففي سنة ١٢٧ قبل الميلاد استلم الحكم في الرها (تحت السيادة السلوقية) ابو بار مازور زعيم احدى الاسر العربية التي استأثرت بعرش ولاية اوسروينا بضعة قرون . وعندما كلف بومبي القائد الروماني كراسوس بخوض الحرب مع الفرس البارثيين (سنة ٥٤ ق.م) وقف الى جانبه كل من الابجر الثاني ملك اوسروينا العربي الاصل ، والخودوني زعيم احدى الاسر العربية المسيطرة على القبائل العربية التي كانت تعيش حياة شبه بدوية الى الغرب من نهر الفرات (١٨) .

في عصر الاحتلال الروماني كانت الاراضي السورية الخاضعة للرومان في المنطقة الممتدة الى الشرق من الفرات مقسمة اداريا الى منطقتين : الاولى ، هي منطقة ما بين النهرين الشمالية ومركزها مدينة آمد ، والثانية هي منطقة مابين النهرين الجنوبية (اوسروينا) ومركزها مدينة الرها (اديسا) . وفي القرن الرابع الميلادي (بداية العصر البيزنطي) كانت تلك المناطق السورية كلها معا تعرف باسم « ولاية مابين النهرين واوسروينا » Mesopotamia et Osroena Provinciae (١٩) . ويسمى بهذا الاسم ايضا بروكوبيوس المؤرخ البيزنطي في القرن السادس الميلادي (٢٠) . في زمن الاحتلال الروماني - البيزنطي حافظت مدينة الرها على اسمها السوري « اورهاي » ذي المنشأ الاقدم والمرتبط بالعرب . وفي عصر الخلفاء المسلمين حرف اسم « اورهاي » الى « الرها » ثم الى « اورفة » بعد ان احتلها الاتراك . وأشار المؤرخ بوليبيوس الاكبر (في كتابه : التاريخ الطبيعي) الى ان نهر دجلة كان يمثل الحدود الشرقية للقبائل العربية التي يسميها « عرب الرها » Arabes Oraei (٢١) .

بصرف النظر عن ان يشوع العمودي قد نسب اسفاره التاريخية الى منطقة مابين النهرين السورية كلها ، فانه من الناحية الفعلية تحدث بالدرجة الاولى عن مدينة

الرها التي تقع في مركز اهتماماته . كانت الرها (اديسا حسب التسمية اليونانية) العقدة التي تلتقي فيها مجموعة كاملة من الطرقات ، بعضها يتجه من الغرب الى الشرق ، والبعض الآخر يربط بين الاجزاء الشمالية والجنوبية لمنطقة ما بين النهرين السورية . وكان البيزنطيون والفرس معا ينظرون الى الرها بمثابة مفتاح للدخول الى عدد من مناطق ما بين النهرين . فالى الغرب من الرها تقع مدينة بيرجيك (افاميا) . وفي الطرف المقابل ، على الضفة اليمنى لنهر الفرات تقع مدينة زيجما . من هناك كانت تمر احدى الطرق القادمة من سورية الوسطى والغربية باتجاه ما بين النهرين . الى الجنوب وعلى الفرات تقع بلدة معروفة في العصر الروماني وما بعده كقلعة وهي اوروبوس او دورا المشهورة اليوم باعتبارها مكانا لاثار القرنين الثاني والثالث الميلاديين (٢٢) . وعلى الفرات ايضا تقع مدينة سميساط . وعند مصب نهر ديسان (الذي تقع عليه مدينة الرها) في نهر غولاب (جلاب) تقع مدينة حران ، التي يتحدث عنها يشوع العمودي ، فيقول انها تعرضت في زمن الحرب البيزنطية - الفارسية الى هجوم العرب (ربما يقصد عرب المناذرة) . الى الجنوب من حران ، وبالقرب من الفرات تقع مدينة كاليينيكوس (الرقة) ، التي احيطت بسور في سنة ٤٤٩ م ، فاطلق عليها فيما بعد اسم اخر هو ليونتو بوليس (على اسم الامبراطور البيزنطي ليون الاول ٤٥٧ - ٤٧٤) . الى الشرق من الرها تقع مدينة نصيبين (بجوار القامشلي) ، التي بقيت فترة من الزمن تحت السيطرة الرومانية - البيزنطية ، ثم انتقلت الى ايدي الفرس ، ومن ثم ظلت تمثل تفاحة الخصام بين ايران وبيزنطة . الى الشمال من نصيبين ، وعند الحدود الفارسية البيزنطية مباشرة كانت تقع مدينة دارا التي حصنها الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) وجعل منها مركزا عسكريا لحماية الحدود . وفي منتصف الطريق بين دارا والرها كانت تقع مدينة التلة المحاطة بالاسوار والتي تمثل مركزا عسكريا هاما للبيزنطيين (٢٣) . وكانت مدينة آمد التي تقع على نهر دجلة (اني الشمال من تلة) مسورة بأسوار صعبة المنال ، كما كانت مركزا تجاريا عظيم الشأن (٢٤) .

في مطلع القرن الخامس كانت الرها مدينة كبرى من حيث عدد السكان والتحصين الجيد . كان فيها المسرح والسرك والحمامات العامة وانابيب المياه والورشات الصناعية ومعامل السلاح الحكومية . وكانت توجد بوابات على نهر ديسان الذي يجري في وسط الرها . وبعد هجوم ملك المناذرة النعمان على الرها صنعت لهذه البوابات (في تشرين الثاني سنة ٥٠٢ - ٥٠٣) مزالح (ترابيس) ، والاصح انها صفت بالحديد لجعلها عصية على من تراوده نفسه اقتحام المدينة عن طريق النهر ، ولم يتوفر الحديد اللازم لتنفيذ هذا العمل ، ففرض على كل بيت بصورة الزامية في مدينة الرها ان يقدم (١٠) ليتر (وزن يوناني) من الحديد (٢٥) . كان نهر ديسان يتحول الى سيل عارم عكر في

الربيع والخريف ، فيفيض من الضفتين ويفرق القطاع المنخفض من المدينة . وكانت الفيضانات المتكررة تسبب ضحايا بشرية . وفي عهد الامبراطور جستنيانوس (٥٢٧-٥٦٥) كانت مياه « الفرس الاصيلة او السريعة » (نهر ديسان حسب التسمية اليونانية) توجه باتجاه الشمال في مجرى خاص محفور في الصخر خلف سور المدينة (٢٦) . ويتحدث يشوع العمودي عن وجود انبوين للمياه كانا ممدودين الى المدينة من قريتي تل زيبا وموداد الواقعتين الى الشمال من الرها ، وقد تم تجديد هذه المجاري المائية المارة على قناطر مرتفعة في عهد الوالي البيزنطي افلوغيوس سنة ٥٠٥ ميلادية (٢٧) . وكانت المياه خارج حدود الرها تصب في اقنية للسري لتسقي البساتين وكروم العنب .

طبقا للوصف الذي يقدمه المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، كانت الاسوار المحيطة بمدينة الرها مؤلفة من صفين ، الاول يمثل جدارا عاليا ترتفع عليه الابراج . واما الجدار ذي الابراج كان يمتد منخفض يفصله عن الجدار الثاني (٢٨) . وتعتبر القلعة واحدة من اروع الابنية الحصينة في مدينة الرها . تقع هذه القلعة في ساحة جبلية ترتفع عن مستوى المدينة بحدود مئة متر ، كما انها محاطة بخنادق عميقة ومحمية بأبراج مزودة بقاذفات وتروس (٢٩) .

كان الشارع الرئيسي في الرها يمتد من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وعلى امتداد كورنيش نهر ديسان . وكانت الاروقة على امتداد الشارع ، وفيها تواجد الحرفيون وورشاتهم . هناك كانوا يبنون حوانيتهم ومصانعهم التي تغطي كورنيش النهر كله . البناء الذي يسمى « انتيفورس » ويذكره يشوع العمودي يتوجب افتراض وجوده مقابل الساحة العامة (٣٠) . اما بروكوبيوس فيقول بان هذا البناء الذي هدمه الفيضان قد رمم في عهد الامبراطور جستنيانوس (٣١) . وكان في المدينة حمامات صيفية وحمامات شتوية (٣٢) . اما الحمامات الشعبية الجديدة فقد شرعوا ببنائها في عهد الحاكم الكسندر سنة ٤٩٧م في المكان الذي كان قد اقترح ان تبني فوقه قبل مدة طويلة من الزمن ، وهو الى جانب مستودع الحبوب الحكومي (٣٣) اما المستودعات والعنابر الحكومية (التي بنيت الحمامات بجوارها) فيذكرها يشوع العمودي في روايات عديدة . وكانت تخزن في تلك المستودعات وغيرها المواد الغذائية التي ترد بمثابة ضرائب عينية (٣٤) . وكانت اقامة الوالي البيزنطي في البناء الذي يسمى «بريتوريون» - أي قصر الوالي . وخلف سور المدينة عند مدخل بيت شمش كان يوجد بناء عبارة عن مستشفى وبيت للعجزة Hospicium (٣٥) .

ومن المنشآت العامة في الرها ميدان سباق الخيل الذي كان موجودا في الحي الشمالي من المدينة منذ عصر استقلالها . ففي هذا الميدان كانت تجري مباريات سباق

الخييل والمصارعات بين الحيوانات المتوحشة . لكن تلك الالعب منعت في عهد الامبراطور انتاسيوس الاول ٤٩١ - ٥١٨ (٣٦) . اما المسرح الذي يقع في الجزء الشرقي من المدينة ، فكان مكانا لمشاهد مفرحة خاضت الكنيسة المسيحية ضدها حملة قاسية ، لكنها لم تتمكن من منعها . وكانت من روائع ذلك المسرح المسرحيات والتمثيلات التي ترتبط بالاحتفال بالعيد الوثني في مطلع شهر ايار ، الذي بقي قيد الممارسة الفعلية في الامبراطورية البيزنطية حتى القرن السادس الميلادي . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا العيد الوثني باشتمزاز وغضب واستنكار ، لكنه يعطيه وصفا حيا . ذلك العيد كان محببا من قبل الاسلاف « الاباء » ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « الجهاء » . في سنة ٤٩٧ - ٤٩٨ كان الاحتفال بهذا العيد يجري على الشكل التالي : « ها هو وقت العيد يقترب من جديد ، العيد الذي تنشئ فيه الاساطير الوثنية ، وكان سكان المدينة يبذلون جهودا اكثر مما مضى . خلال سبعة ايام كانوا يهرعون جماعات جماعات الى المسرح في اوقات المساء ، يرتدون الالبسة الكتانية والعمامم ويسيرون بارداف مباحة . كانت الشمعدانات (المصابيح) تضيء امامهم ، ودخان البخور يتصاعد ، وهم في حركة دائمة طوال الليل ، يتجولون في المدينة مباركين الراقصين حتى الصباح بالاغاني والانشيد وهتافات الفطرسه والشموخ (٣٧) . ويتحدث المؤرخ يشوع العمودي عن الاحتفال بذلك العيد الوثني في سنة ٤٩٥ - ٤٩٦ فيقول : « ارتدت المدينة حلة من الزينات بمناسبة العيد ، كما اشعلت اعداد كبيرة من المصابيح . ولم يكن مثل هذا التقليد يمارس في المدينة من قبل . من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وضعت على الارض بمحاذاة النهر المصابيح المشتعلة ، كما علقوا بعضها في الاروقة والشوارع العليا واماكن اخرى كثيرة » (٣٨) .

في المنطقة المرتفعة من مدينة الرهانبنت قصور الاغنياء التي كانت مليئة بالمفروشات والسجاد والالبسة والاواني الثمينة . عن غنى و ثراء الطبقة المستغلة في المدن السورية الواقعة على طرق القوافل التجارية في منطقة مابين النهرين يمكننا ان نحكم من خلال ما ترويه الاخبار التاريخية المنسوبة لتركيا الميتيليني (الملطي) حول الكنوز التي نهبت من مدينة آمد على يد الملك الفارسي قباذ . ويذكر الكاتب من تلك الكنوز : التماثيل ، الساعات الشمسية ، المرمر ، البرونز ، الذهب والفضة ، الالبسة الثمينة (٣٩) . الى جانب صورة الترف والبذخ في قصور الاغنياء ، كانت هناك صورة تمثل الفقر المرعب للطبقات الشعبية الكادحة التي تقطن في الاكواخ والخيام المثيرة للشفقة . فالالبسة الفاخرة الثمينة التي كان يرتديها الحكام والاغنياء كانت تتميز على خلفية الثياب الرثة التي كان الفقر يغطي بها عورته . وهكذا كان التباين بين الطبقات الغنية والفقره صارخا وملفتا للانظار .

كان سكان الرها يتألفون من شعوب مختلفة . لكن السكان الأساسيين للمدينة ومنطقة اوسروينا كانوا من السوريين (العرب القدماء) ، كما كانت لغتهم السريانية هي اللغة السائدة في سورية العظمى كلها . وحتى منتصف القرن السابع الميلادي كان السوريون يسيطرون على خيوط العلاقات التجارية في الشرق والغرب ، كما كانوا في قطاع كبير من الميادين الصناعية دون منافس او مزاحم . وكان الرومان واليونانيون والفرس يشكلون بعض المجموعات في الرها وغيرها من المدن السورية في منطقة ما بين النهرين . اضافة الى تلك الاقليات كان يأتي مع القوافل التجارية ويخرج عبر الاف السنين الجورجيون واللازيون والكوديشيتيون والتموريون والمصريون والاحباش والهنود . وطبقا لذلك كان اللباس متنوعا ، والعادات والتقاليد مختلفة ومتباينة . وكانت خليطة ايضا اللغات واللهجات التي تتحدث بها جماهير المنطقة في ذلك العصر . وكذا كانت متباينة المعتقدات الدينية : الوثنية بكافة المظاهر والاشكال ، الزرادشتية ، اليهودية ، المسيحية بكافة مذاهبها واتجاهاتها - كل هذه الديانات كانت موجودة جنبا الى جنب في منطقة ما بين النهرين السورية .

تعتبر الرها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مدينة نموذجية من مدن الشرق الادنى . فهي مدينة صاخبة خليطة يتكلم سكانها بلغات عديدة . المظهر الخارجي للمدينة (بأبنيتها المحصنة واسوارها والمباني العامة وانابيب المياه) كان رومانيا - بيزنطيا . لكن الحياة الصاخبة كانت تشبه حياة كل المدن الشرقية بأسواقها ودكاكينها ومسارحها ومواكبها الطويلة . اعيادها واحتفالاتها التي تقام في الشوارع والساحات تذكر بالامواج المضطربة بعنفها وشدتها . الصناعة والتجارة والترف والثراء والذهب والحجارة الثمينة - كل هذا كان يجذب الناس الى الرها ، كما كان مادة لاطماع جيرانها العسكريين الفرس ، ولكن لم يقدر لهم اغتصاب هذه اللؤلؤة السورية من ايدي جيرانهم البيزنطيين .

٣ - العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في المدن السورية :

أ - التركيب الطبقي في المدن السورية :

١ - الحرفيون والعمال :

كانت الغالبية العظمى من سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين تتألف من الصناع والحرفيين المنظمين في جمعيات حرفية تشرف عليها الحكومة ، اضافة الى عدد كبير من العمال المياومين والعبيد والمحربين من العبودية . وتطلق أسفار

يشوع العمودي السورية على الصناع والحرفيين اسم « يوماني » ، وهذه التسمية السريانية تقابل التسمية اليونانية « تخنيتس » technites والتسمية اللاتينية « فابريكاتور » Fabricator (٤٠) . ويطلق هذا الاسم عادة على الصناع المهرة او الحرفيين المجريين . لكن مضمون المصطلح « يوماني » لا يقتصر على هذا المعنى ، حيث تطلق اسفار يشوع العمودي اسم « يوماني » أيضا على العاملين غير الفنيين وغير المؤهلين . وهذه المصادر السريانية لا تفرق في المصطلحات أحيانا . فمن الحمامات التي كانت تشيد تقول هذه الاسفار التاريخية ان عددا كبيرا من « الناس » كانوا يعملون فيها(٤١) . والقانون السوري يطلق على الحجارة الذين ينون الابنية الحجرية اسم « يوماني » ويقصد بذلك الصناع او الحرفيين(٤٢) . وعندما اقتضت الحاجة للقيام بحفريات قرب مدينة آمد السورية استدعي الحرفيون لهذا العمل من مدن اخرى ، كما ساعدهم في ذلك العمل « القرويون »(٤٣) . لم يكن « اليوماني » (الصناع او الحرفيون) في القرن الخامس الميلادي يمثلون فئة واحدة ، بل كانوا مجموعة غير متجانسة من الناس الذين لا يمارسون العمل الزراعي . كان يطلق « يوماني » على العامل المياوم غير المؤهل الذي يتحمل أعباء ثقيلة مثل العبد ، كما يطلق أيضا على صاحب الحرفة الماهر الذي يملك مشغله وحانوته الذي يبيع فيه انتاجه الصناعي . ونعرف عن العمال المياومين انهم كانوا « يقفون في سوق العمال » منتظرين دعوتهم الى العمل . وكانت ظروف عملهم اشبه ما تكون بظروف عمل العبيد ، كما كانت أجورهم تؤخر ، وأحيانا لا تدفع ، او تدفع منقوصة(٤٤) . كان اصحاب الاعمال يسيئون الى العمال بشتى الوسائل ، مستغلين قدراتهم الاقتصادية وامتيازاتهم القانونية .

وتعطي الاسفار التاريخية معلومات عن دفع الاجور . فالتنافس الدائم بين عمل هؤلاء العمال الاحرار وعمل العبيد ، والظروف الحياتية البائسة ، والفش والخداع أثناء حساب الاجور - كل هذا كان يعاني منه هؤلاء الكادحون . ويمكن الاشارة الى معلومات عن الاجور في القرنين السادس والسابع . كان الحجار في مصر والمياوم يحصل على « كيراتيون » (عملة فضية صغيرة) واحد في اليوم(٤٥) . وتقدم الاسفار التاريخية السورية المنسوبة الى زكريا الميثيليني (المظلي) معلومات عن اجور عمال البناء في المدن السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لكن هذه المعلومات تحتاج الى تحليل . لقد اختار الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) مدينة دارا الصغيرة لتكون مركزا استراتيجيا جديدا على الحدود مع الفرس . وعلى جناح السرعة اخذ الصناع والعمال ينون الاسوار ويمدون الانابيب لجر المياه من الجبال الى صهاريج مصنوعة خصيصا لحفظ الماء . بني كذلك مستودع للحبوب وحمامات وغيرها من الابنية ذات الخدمات الاجتماعية . وكان الهدف من هذا كله تامين المعيشة في المدينة في حال وقوعها تحت حصار الاعداء الفرس . ألح الامبراطور انستاسيوس بالاسراع

في عملية البناء وكلف توما اسقف آمد بالاشراف على ذلك العمل . اخذ الاسقف توما بتردد كثيرا على مكان العمل ويرسل وكلاءه احيانا . هذه التفاصيل التي أوردها زكريا الملطي لم يعرفها المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، الذي اشار في كتابه De aedificiis بملاحظات موجزة عن دارا ، شأنه في ذلك شأن تيوفانس في حولياته التاريخية (٤٦) . أما المصدر السوري (زكريا الملطي) فيذكر المرسوم الخاص الذي أصدره الامبراطور انستاسيوس ، ويفيد بان النقد كان يسك بكميات كافية ، كما وعد الامبراطور الاسقف توما بتغطية كافة النفقات المتعلقة بالبناء . تطلب جمع المواد ونقل الحجارة ايدي عاملة كثيرة ، ولذا استدعى الحرفيون « يوماني » والعبيد « عبيدي » والفلاحون « بلاحي » الى مدينة دارا ، كما أرسل اليها عدد كبير من الحجارين والنحاتين . وأمر الامبراطور « بالآ » يساء لاحد في اجرة عمله الذي انجزه « (٤٧) » .

وبفضل « الكرم » بدفع الاجور انجز بناء القلعة خلال وقت قصير نسبيا . كان مراقبو العمل يحصلون على أموال طائلة ملأت جيوبهم (٤٨) . ومما ساعد في جذب الناس الى العمل في بناء قلعة دارا أن دفع الاجور كان يتم دون تأخير ، في حين كان العاملون في أماكن أخرى يعانون عادة من التأخر والفش في دفع الاجور . كان البنائون والنحاتون قد أرسلوا خصيصا من المدن الكبرى . أما الباقون فكانوا من المياومين الذين من بينهم الحرفيون والفلاحون والعبيد المرسلون من قبل أسيادهم ليعملوا ، فيأخذ الأسياد أجرة عملهم . « امتلأت الجيوب » ، « أثرى الكثيرون » ، هكذا يقول المؤرخ السوري زكريا الملطي ، وكان محقا بالنسبة لمراقبي العمال وحدهم .

يجب فهم المعلومات التي يقدمها زكريا الملطي عن اجور العمل اليومي بحذر . « كان العامل (بيالا) يحصل في اليوم الواحد على أربعة كيراتيون ، وإذا كان معه حماره ، فيحصل على ثمانية كيراتيون » (٤٩) . يشير هذا الاجر المرتفع بعض الشك ، لان الاجر اليومي للعامل لم يتجاوز عادة كيراتيونا واحدا . وتفسر اسباب هذه الزيادة في الاجور بضرورة الاستعجال في تنفيذ البناء ، وبضرورة اجتذبات العمال لانجاز هذا العمل الذي له أهمية استراتيجية كبيرة . الى جانب ذلك يجب الانتباه الى ان سعر القمح (الذي ذكره يشوع العمودي في سنة ٥٠٤-٥٠٥ م) بلغ أربعة كيراتيون للمد الواحد (المد = ٢ كغ) . بدء البناء في قلعة دارا بعد عقد الصلح بين الفرس والبيزنطيين . في ذلك الحين كان القمح ينقل من الرها الى آمد ودارا ، ولذا كانت أسعار القمح في آمد ودارا بقدر ماهي عليه في الرها تقريبا او اكثر بقليل . وربما هبطت أسعار القمح بعد سنة ٥٠٥ ميلادية ، لكن من المحتمل ان اجور العمال المرتفعة التي افاد بها زكريا الملطي كانت نتيجة ارتفاع سعر القمح في ذلك الحين .

بنى الحرفيون في شوارع الرها وساحاتها مصانعهم وحوانيتهم^(٥٠) ، وهم لم يسكنوا فيها ، بل كانوا يأتون إليها مع صناعاتهم للعمل فيها خلال النهار . في تشرين الثاني من سنة ٥١٣ حسب التقويم اليوناني (أي في سنة ٢٠١ ميلادية) حدث في مدينة الرها السورية فيضان كبير أغرق القسم المنخفض من المدينة^(٥١) . لقد خرج نهر ديسان (الذي تقع عليه الرها) عن شطآنه ، فسبب كارثة كبيرة . وعلى هذا أمر ملك الرها العربي (الأبرج الثالث عشر) « بأن يبعد حرفيو المدينة حوانيتهم عن النهر ، والا يبنى أحد منهم حانوتا له قرب النهر »^(٥٢) . والهانون (بالسريانية حانوتا ، وباللونية ارغستيرا) كان بمثابة مشغل لصنع المواد والادوات ومكان يجري فيه البيع في الوقت نفسه . كان كورنيس نهر ديسان الشارع الرئيسي المفضل للصناع في الرها . ففي القرن الثالث كان هذا الشارع كثير الحركة والنشاط ، وبقي هكذا في القرن الخامس ، حيث كان يتجمع فيه الشعب في أيام الأعياد ، كما كان ينار بشكل غير عادي^(٥٣) . وتجنباً للضحايا البشرية عند تكرار الفيضانات أمر الملك الأبرج أيضاً بأن « على كل من يجلس في الأروقة ويعمل قرب النهر الا ينام في حانوته من تشرين الأول حتى نيسان »^(٥٤) . هذا الأمر أخذ بعين الاعتبار أولئك الحرفيين الذين مارسوا عملهم وتجاريتهم في هذه المشاغل ، وأحياناً كانوا يقضون ليلتهم فيها . أما المنزل ، مكان العيش الدائم ، فكان في مكان آخر من المدينة ، وربما في مكان ما من الضواحي . واستخدمت الأروقة كمكان مسقوف يستطيع الصناع عرض انتاجهم وبيعه فيه . وقد اقيمت الأكشاك في تلك الأروقة المسقوفة لتجنب وطأة الشمس المحرقة والأمطار . وغص الشارع الرئيسي بتلك الأكشاك ، مما اضطر حاكم المدينة البيزنطي الكسندر (في سنة ٤٩٦-٤٩٧) أن يأمر بخلعها وإزالتها بغية تنظيم المدينة^(٥٥) . وكانت الأوساخ ونفايات الإنتاج تلقى في ذلك الشارع ، فأمر الحاكم الكسندر باتخاذ مايلزم من إجراءات لتنظيف المدينة من تلك الأوساخ ، خاصة وأن مرض الطاعون وغيره من الأمراض السارية الجماعية ظلت تهدد مدينة الرها السورية باستمرار^(٥٦) .

وعلى غرار الجمعيات الحرفية لعمال المخابر (التي توجد معلومات تفصيلية عنها في المصادر التاريخية) شكل الحرفيون الآخرون في المدن السورية جمعيات حرفية (نقابات) منظمة . وكانت تلك الجمعيات الحرفية تعمل بعلمهم وسماح من حاكم المدينة الذي يشرف على تنظيمها^(٥٧) . وكانت لدى حاكم المدينة قوائم بأسماء الحرفيين من أجل تلبية احتياجات الخزائن بالضرائب .

٢ - الملاكون الكبار :

كان أباطرة روما ومن ثم بيزنطة يملكون في الولايات السورية أراضي خاصة بهم . وقد أشار إلى تلك الأملاك القانون البيزنطي الصادر في سنة ٣٨٦ بالعبارة التالية :

« الاملاك الامبراطورية في ولايتي ما بين النهرين واوسروينا » Fundi Patrimoniales
per Mesopotamiam et Osroenam Provincam (٥٨)

ان المصطلح اللاتيني « فوندي باتريمونياليس » Fundi Patrimoniales قد اطلق عادة على املاك الاباطرة الزراعية التي كانت ، كما اشير ، وراء الفرات . ومن المحتمل ان الاملاك الزراعية التي كانت تخص ملوك الرها العرب قد انتقلت ملكيتها الى الاباطرة الرومان بعد الاحتلال الروماني للمنطقة . وفي مطلع القرن السادس الميلادي امتلك الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بعض الاراضي الزراعية قرب حصن دارا وجعلها تابعة للدولة .

اضافة الى الاملاك الزراعية التي تخص الاباطرة والدولة البيزنطية المستعمرة ، كانت هناك املاك كبيرة تخص « الاغنياء ورفيعي الشأن والمقام » من السكان السوريين . وتطلق المصادر السورية (السريانية) على هؤلاء الاغنياء والوجهاء والاعيان المحليين اسم « روبان » المشتق من الاصل العربي القديم « رب » . انهم وجهاء المدينة الذين يتألفون من كبار الموظفين وكبار رجال الدين وكبار ملاكي الاراضي والاثرياء . وكان هؤلاء الملاكون الكبار يشكلون الطبقة المستغلة في القرية والطبقة المسيطرة في المدينة ، كما كانوا يمارسون جملة من الوظائف في ميدان الادارة والحكم ، وهم مسؤولون امام الدولة عن جمع الضرائب من المناطق التابعة للمدينة . عندما اصاب الاعياء الملك الفارسي قباذ وجنوده خلال حصارهم مدينة آمد السورية عرض على المدينة فك الحصار مقابل تقديم مبلغ محدد من الفضة . لكن وجهاء المدينة (ومنهم ليونتئوس بن بابي عضو مجلس المدينة ، والوالي كيروس ، وامين الخزانة « رب بيتا » بولس بن زينب) ارسلوا الى قباذ يطلبون منه ان يدفع هو نفسه الاموال ثمن خضروات البساتين التي اكلها جنوده ، وثمان الخمر والقمح الذي جمعه ونهبه من القرى المجاورة (٥٩) . لم يكن هؤلاء « الوجهاء » الذين طلبوا من الملك الفارسي تعويضات عن المحاصيل المروقة يدافعون عن مصالح الفلاحين ، بل عن مصالحهم الشخصية واملاكهم الخاصة . وكان هؤلاء الاغنياء « الوجهاء » يحتكرون الحبوب ويتاجرون بها دون الاهتمام بمصلحة المواطنين . وفي اثناء الحصار الفارسي لمدينة آمد السورية لحقت الاضرار بمصالحهم الخاصة ، كونهم من كبار الملاكين الزراعيين واعضاء في المجلس البلدي للمدينة . وعندما طلب قباذ الفدية ايضا من مدينة الرها السورية ، رفض اعيان تلك المدينة دفع المبلغ الكبير المطلوب (٦٠) . هؤلاء الاعيان والنبل كانوا يعيشون عادن في المدن ، حيث كانت لديهم قصور فخمة مشهورة بهندستها المعمارية . عندما احتل قباذ مدينة آمد اقام في قصر النبيل بولس بن زينب ، فوجد عنده كمية كبيرة من الذهب فاغتصبها . وتطلق الاسفار التاريخية السورية

(السريانية) على فئة من نبلاء المدينة الذين مارسوا الوظائف الادارية اسم «ريشان» ويعني الرؤساء او القادة . ويمكن لهذا الاسم ان يكون بديلا عن لقب « كوريسال » اليوناني .

خلال الحرب التي نشبت بين بيزنطة وايران أغرقت مدينة الرها السورية بعدد كبير من الجنود البيزنطيين الذين ارسلوا الى منطقة ما بين النهرين للوقوف في وجه الفرس . كان توزع الجنود البيزنطيين وتأمين اماكن السكن لهم بايدي الزعماء السوريين المحليين ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « ريشان بني اترا » (١١) . وكان هؤلاء الزعماء المحليون يسيطرون على الادارة المحلية التي كانت لاتزال قائمة في المدن السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لقد فرض هؤلاء الزعماء المحليون تأمين سكن الجنود البيزنطيين على الحرفيين في مدينة الرها وعلى الفلاحين في القرى المجاورة ، في حين اعفوا كبار الملاكين من ذلك العبء الثقيل . ويشكو يشوع العمودي في اسفاره التاريخية من هؤلاء الزعماء المحليين ورشواتهم التي لم تعرف لها حدود، اذ نهبوا الجميع واصلوهم الى حالة لا تطاق . فهم يعدون الحرفيين والفلاحين باعقائهم من اقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم مقابل الرشوات ، ومن ثم يفرضون عليهم اسكان هؤلاء الجنود في منازلهم ، بصرف النظر عن الرشوات التي قبضوها منهم . وجاء في قوانين الامبراطور انستاسيوس المتعلقة باستيراد الحبوب ، ان هؤلاء الزعماء المحليين كانوا يشاركون في اختيار مستوردي الحبوب لتأمين تموين المدن (١٢)، كما كانوا يلعبون دورا حاسما في المفاوضات مع السلطة البيزنطية المركزية ، ومع العدو الذي يحاصر مدنها . انهم ملاكون كبار تركزت مصالحهم حول الارض الزراعية ، في حين عاشوا في المدن وتركز نشاطهم فيها في اغلب الاحيان .

٣ - الملاكون المتوسطون « السادة القرويون » :

تطلق اسفار يشوع العمودي السريانية على الملاكين المتوسطين اسم « ماري قوريي » (السادة القرويون) (١٣) . اما قوانين جستنيانوس البيزنطية اليونانية ، فتطلق على هؤلاء « السادة القرويين » اصطلاح « ديسبوتاي تون جيورجون » Despotai ton georgon (١٤) . كان يجب على هؤلاء « السادة القرويين » السوريين ، الذين يملكون الاراضي الزراعية في منطقة ما بين النهرين ، ان يقدموا للخزانة البيزنطية الضرائب المفروضة على املاكهم ، فهم اشبه بمضخة تضخ مباشرة الربح من الفلاحين المنتجين الذين يعملون بأراضيهم . وشارك هؤلاء الملاكون المتوسطون في حياة المدن . لقد عاش بعضهم في مدينة الرها السورية ، حيث كانت املاكهم الزراعية بجوارها . وكانت توجد في مدينة الرها منشآت اقتصادية (كالمستودعات والعنابر) تخص ملاكي

الاراضي المتوسطين . وعندما اسكن الجيش البيزنطي (الذي جاء لمحاربة الفرس) في منازل سكان الرها منح هؤلاء « السادة القرويون » افضليات اثارَت الاحتجاج والتذمر في اوساط « بسطاء المدينة » ، الذين أثقلت كاهلهم تلك الفريضة المزعجة . وفي بعض الحالات كانت السلطات البيزنطية تقدم تنازلات « للسادة القرويين » باعفائهم من دفع الضرائب في سني القحط والجوع . لكن مثل هذه التسهيلات لم يستفد منها الفلاحون العاملون بالارض ، لان الانتاج الفائض الذي اعتصره ملاكو الاراضي من الفلاحين المنتجين كانوا يحصلون عليه ، بصرف النظر عن تسديدهم الضرائب لخزانة الدولة الحاكمة او عدم تسديدهم لها . لكن اوضاع الملاكين المتوسطين ينبغي الا نصورها وكأنها سلمت من الظلم . فعندما كان يطلب من ممثل السلطة المركزية البيزنطية جمع الضرائب ، كان يلجأ احيانا الى تدابير صارمة بحق هؤلاء الملاكين المتوسطين . ويشبه المؤرخ البريطاني رايت (في حاشية موجزة) هؤلاء «السادة القرويين» السوريين بالملاكين المتوسطين الايرانيين (الدهاقين) في المهد الساساني(١٥) .

٤ - رجال الدين الكبار :

تتحدث الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا الملطي عن القرى التي كان يملكها الاساقفة السوريون(١٦) . كذلك نتحدث الانقاض الباقية عن الاديرة التي كانت بمثابة حصون محاطة بالبساتين والاشجار المثمرة . وتذكر اسفار يشوع العمودي مجموعة من الكنائس والاديرة التي انشئت بالقرب من مدينة الرها السورية بين كروم العنب والبساتين المشجرة . فمنذ القرن الرابع الميلادي اخذ كثير من المؤمنين المسيحيين ، الذين لا وريث لهم ، يوصون باملاكهم للكنائس والاديرة . ومن جهة ثانية سعى كبار رجال الدين الى زيادة املاكهم واثرواتهم الخاصة بشتى السبل والوسائل . ومما ساعدهم في تحقيق ذلك الوضع السيء الذي عاشته طبقة الفلاحين ، التي كانت تفتش عن حماية لها من طلبات الخزانة الثقيلة وظلم جباة الضرائب ، فوفقت تحت حماية الدير او الاسقف . وكان الاسقف من كبار الملاكين ويعمل في صالح هذه الطبقة المستغلة . وكانت مسائل ادارة المدينة تحل بمشاركة الاسقف . لقد ارتبطت به الوسايط لدى السلطة البيزنطية المركزية لتخفيض الضرائب عن املاك كبارالملاكين، كما كان يتم بمشاركته اختيار مستوردي الحبوب لتموين المدينة(١٧) . ويذكر زكريا الملطي ان توما اسقف مدينة آمد السورية ، بموجب اتفاقية خاصة مع الامبراطور البيزنطي ، كان يدير مع شمامسته (مشمشانا) كل شؤون البناء في قلعة دارا المجاورة(١٨) ، كما كان يملك عدة قرى بفلاحيتها المستعبدين (توتيبى) .

كان الاسقف في المدينة يقوم بدور « المدافع » *defensor Civitatis* عن مصالح « الفقراء غير المالكين » (٦٩) . يتحدث يشوع العمودي قائلا : « في هذا العام (٥٠٤م) توجه الاسقف مار بطرس الى الامبراطور يطلب منه اعفاء المنطقة من الضرائب في ذلك العام ، فاجابه الامبراطور غاضبا موبخا اياه ، لانه ترك العناية بالفقراء المساكين في وقت كهذا وتوجه اليه (٧٠) . لكن الامبراطور الساخط ارسل امر الاعفاء من الضرائب مع شخص اخر متجاوزا الاسقف . ويدو ان تدخل الاسقف في القضايا المالية لم يكن مرغوبا فيه بالنسبة للسلطة الامبراطورية المركزية ، رغم ان الاساقفة معروفون بقيامهم بدور المتوسطين لدى الاباطرة البيزنطيين في اكثر من سفر تاريخي من اسفار يشوع العمودي . فلقد سافر سابا الاسقف الاوروشليمي الى القسطنطينية بطلبات مماثلة كالتى حملها بطرس اسقف الرها (٧١) . ومما يلفت النظر ان الاسقف كان من الواجب عليه تقديم المساعدة للفقراء ، في حين كان دوره الفعلي مقتصر على حماية مصالح كبار الملاكين الاغنياء ، لان مصلحته الشخصية جزء منها .

٥ - التجار :

مارس التجار السوريون نشاطا كبيرا في التجارة العالمية في زمن الاحتلال البيزنطي - الفارسي لسورية . فخلال عدة قرون كان عدد التجار السوريين الذين اقاموا علاقات تجارية مع روما وبيزنطة ومصر كبيرا جدا . وتاجر هؤلاء السوريون بالاقمشة والحبر والحجارة الكريمة والمصنوعات الذهبية والتوابل والعطور والادوية وغيرها . ففي قوانين جامعة نصيبين توجد فقرات ناظمة للرحلات التجارية التي يقوم بها اساتذة تلك الجامعة وطلابها الى بلاد الروم (٧٢) وكان التجار السوريون الذين عاشوا في نصيبين تحت السلطة الفارسية ينقلون البضائع الى الحدود البيزنطية . ان ارتباط المدن السورية بالتجار الوافدين اليها والمنافع الناجمة عن الارباح التي جلبتها التجارة الخارجية قد انعكس في أخبار الاسفار التاريخية المعاصرة . فحينما انتشر مرض الطاعون في مدينة الرها وشمل المناطق السورية من نصيبين حتى انطاكية ، أقام سكان الرها (في اذار سنة ٥٠١) صلوات وابتهالات خاصة كيلا يصاب التجار الوافدون بهذا المرض (٧٣) . مثل هذا الحرص على التجار الغرباء يدل على اهمية دورهم في حياة المدينة الاقتصادية . فاذا اصاب التجار الوافدون بمرض الطاعون تتضرر التجارة الخارجية ، كما سليحق الضرر بتجارة السنوات القادمة .

ب - الضرائب والفرائض المترتبة على سكان المدن السورية :

فرضت الدولة البيزنطية المستعمرة على سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين مجموعة من الضرائب والالتزامات ، بعضها حمل طابع الفريضة ، كتزويد حامية

المدينة بالماء وصنع الخبز للجيش ، ونقل الحبوب وغيرها من الحمولات . وكان أثقل تلك الفرائض الضريبة النقدية التي تسمى باليونانية « خريسار غيروس » وتعني الذهب والفضة . تلك الضريبة فرضها لأول مرة على سكان المدن الامبراطور البيزنطي الاول قسطنطين الكبير ، الذي امر (في سنة ٣١٤ م) ان تدفع مرة كل خمس سنوات . وفرضت تلك الضريبة من اجل تأمين احتياجات الدولة النقدية ، وبخاصة تغطية نفقات الجيش . كانت ضريبة « الخريسارغيروس » تجبى عند تنصيب كل امبراطور جديد ، ومن ثم تكرر عملية الجباية قبل مضي خمس سنوات على التنصيب . هذه المطالب غير المتوقعة وغير المتكافئة مع الدخل كانت شديدة الوطأة على دافعي الضرائب (٧٤) . ودفع تلك الضريبة الصناع والتجار ، في حين اعفي منها الملاكون الكبار ، لانهم يدفعون ضريبة عن الاراضي الزراعية (الخراج) . وفرضت تلك الضريبة على كل حرفة وصناعة ، وعلى كل مشغل وحانوت ، وعلى كل تاجر وبائع ، كما فرضت على دواب النقل كالخيول والبغال والحمير ، فالزم صاحب الحمار بدفع نصف كيراتيون عن حماره (٧٥) . كذلك فرضت هذه الضريبة على المتسولين والداعرات اللواتي كانت اجسادهن مادة تجارتهن . ويتحدث المؤرخ زوسيموس بالتفصيل عن ثقل تلك الضريبة النقدية ، فيذكر ان بعض الناس اضطروا الى بيع ابنائهم عبيدا ، او جعل بناتهم داعرات من اجل تسديد ما فرض عليهم من نقود (٧٦) . ومن اجل ضبط حسابات الخزانة نظمت قوائم خاصة negotiaiorum matricula ادرج فيها اسم كل من يدفع هذه الضريبة . وتذكر ضريبة « الخريسارغيروس » هذه في قوانين تيودوسيوس في اكثر من مكان (٧٧) . واعفي من دفع ضريبة « الخريسارغيروس » الفلاحون الاحرار والفلاحون الكولون الذين كانوا يتاجرون بمعاصيلهم الزراعية والحيوانية في المدن ، لانهم يدفعون ضريبة الراس وضريبة الارض (الجزية والخراج) . ولم يدفع هذه الضريبة الاطباء ولا المعلمون « الاطباء ومعلمو كل العلوم الموجودون في المدن معفون من اية ضريبة ، فهم لا يدفعون ضريبة النفوس (الجزية) ولا ضريبة الخريسارغيروس ، ولا يمكن ان يجبروا على ان يكونوا اوصياء على الايتام ، ذلك لان الاطباء يعالجون الاجسام ، والمعلمون يعالجون النفوس » (٧٨) .

الفى الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) ضريبة « الخريسارغيروس » المكروهة . ومن بين المؤرخين البيزنطيين يذكر هذا الموضوع بايجاز يوحنا مالالاس . اما ايفاغريوس الذي اولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا ، فيذكر ان في عهد هذا الرجل (انستاسيوس) احرقت القوائم التي كانت محفوظة لدى موظفي الخزانة من اجل تحصيل الضريبة (٧٩) . وبفضل المصادر السورية (السريانية) يمكن تحديد تاريخ دقيق لالغاء هذه الضريبة . لقد جاء في اسفار الرها مايلى : « في شهر ايار من سنة

٨٠٩ يونانية (٤٩٨ ميلادية) ألفيت ضريبة الخريساغيروس «(٨٠)» . وحول العبء الثقيل الذي مثلته تلك الضريبة تحدث افضل من غيرها اسفار يشوع العمودي التي جاء فيها مايلى: « في تلك السنة (٨٠٩ يونانية = ٤٩٨ ميلادية) صدر امر من الامبراطور انستاسيوس بالغاء ضريبة الذهب التي كان يدفعها الحرفيون مرة كل ٤ سنوات . ولم يشمل هذا الاعفاء مدينة الرها فحسب ، بل شمل ايضا كل المدن الواقعة تحت السلطة البيزنطية . وكان ابناء الرها يقدمون ١٤٠ ليتر من الذهب مرة كل اربع سنوات «(٨١)» . فاذا كان ليتر الذهب يساو ٢٧٣ غراما ، فان ال ١٤٠ ليترا التي كانت تدفعها مدينة الرها مرة كل اربع سنوات تشكل ٢٨ و ٢ كيلو غراما من الذهب ، وهذا المبلغ ليس قليلا .

ويذكر يشوع العمودي ايضا كيف كان الحرفيون يحيون ذكرى الغاء ضريبة الخريساغريس فيقول : « فرحت كل المدينة . خرج الجميع - الصغار والكبار - باللباس الابيض . خرجوا ينشدون الاغاني والتراتيم الدينية ، حاملين الشموع المضيئة . وبعد ان وصلوا الى كنيسة مارسركيس ومار سمعان الواقعة خلف المدينة ، عادوا الى المدينة واقاموا طيلة الاسبوع عيد الفرح والسرور ، كما قرروا انهم سوف يحتفلون بهذا العيد كل عام . استراح جميع الحرفيين (اليوماني) وفرحوا واستحموا واقاموا الولائم في ساحة المعبد وفي كافة اروقة المدينة «(٨٢)» .

وفيما عدا دفع الضرائب الزم سكان المدن والقرى السورية بمجموعة من الفرائض الاخرى التي تحتاج الى الايدي العاملة ودواب النقل . ومن هذه الفرائض تقديم الخدمات للجنود البيزنطيين . لقد الزم سكان الرها بنقل الماء للجنود البيزنطيين . ويذكر يشوع العمودي ان الامبراطور انستاسيوس اعفى سكان الرها من نقل الماء للجنود البيزنطيين في سنة ٥٠٠ ميلادية ، بناء على الرجاء الذي قدمه له بطرس اسقف الرها «(٨٣)» . وفي زمن الحملة على الفرس اصبح صنع الخبز المخصص للجنود البيزنطيين فرضا على جميع سكان الرها . لقد حشدت بيزنطة على حدودها الشرقية اعدادا كبيرة من الجنود من اجل الحرب مع ايران . وكان الانضباط مفقودا لدى هؤلاء الجنود ، الذين كان معظمهم من البرابرة . فهم ينهبون ويسرقون ويبتزون سكان المدن والارياف . ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس ذلك بقوله عن الجنود البيزنطيين مايلى: « لديهم قانون منذ امد بعيد وهو : الخوف من الفرس وسلب الفلاحين المواطنين «(٨٤)» . كان يجب اطعام الجيش البيزنطي الذي جاء الى سورية لمحاربة الفرس ، ففرض صنع الخبز على السكان السوريين . وكان هؤلاء السكان يصنعون خبز الجنود من الحنطة التي تعطى لهم من مخازن الدولة . ويذكر يشوع العمودي مايلى : « في ايار من سنة ٥٠٣ وصل الايبارخوس آبيون الى مدينة الرها كي يشرف على تموين القوات التي

كانت معه . ولما لم يتوفر له القدر الكافي من الخبز الذي يصنعه الخبازون المختصون ، فقد امر بتقديم القمح لكل بيت موجود في الرها وألزم السكان بصنع خبز الجيش على حسابهم الخاص « (٨٥) وفي اخبار السنة التالية يذكر هذا المؤرخ السوري ما يلي : « في ايار من سنة ٥٠٤ أصبح كاليوبا الحلبي إيبارخوسا وجاء الى الرها ، فأعطى القمح لسكان المدينة كي يخبزوا خبز الجنود . في هذه المرة خبزوا ٨٥٠ ألف مد من القمح . أما الإيبارخوس السابق آبيون فقد ذهب الى الاسكندرية وأخذ يصنع هناك ايضا خبز الجنود ويرسله الى الرها » (٨٦) . وفي مكان آخر يقول يشوع العمودي : « لقد صنع الخبز من ٦٣٠ ألف مد من الحنطة في مدينة الرها بأمر من كاليوبا ، إضافة الى ما كان يخبزه القرويون في كافة انحاء المنطقة والخبازون الوافدون والمحليون » (٨٧) .

وهكذا كان صنع الخبز للجنود البيزنطيين بمثابة فريضة ثقيلة على كل بيت سوري في منطقة ما بين النهرين ، أكان ذلك البيت في المدن أم في الارياف . وكان ذلك العمل عبارة عن واجب قسري يتطلب اضاءة الوقت والعمل الشاق ، لان الحبوب كانت تطحن في المطاحن اليدوية ، كما كان صنع الخبز يتطلب جهودا كبيرة . ان استغلال جهود السكان السوريين بهذا الشكل المضني قد جاء نتيجة غياب الجهاز الحكومي المتخصص بهذا العمل لدى الجيش البيزنطي المحتل .

وكانت اقامة الجنود البيزنطيين وتأمين السكن لهم من اثقل الفرائض على السكان السوريين . حينما حاصر الملك الفارسي قباد (في تشرين الاول سنة ٥٠٢) مدينة آمد السورية ، ارسل الامبراطور البيزنطي جنوده الى منطقة ما بين النهرين لحمايتها من الفرس . ولقد اقيمت مسؤولية اقامة الجنود البيزنطيين بكل ثقلها على كاهل الحرفيين السوريين في المدن وعلى الفلاحين في الارياف . أما طغمة الاغنياء والمتنفذين في المدن فقد أعفت نفسها من هذه الفريضة المزعجة وألقت بها على كاهل الطبقات الشعبية الكادحة والفقيرة . وكان الجنود البيزنطيون يتألفون في غالبيتهم العظمى من البرابرة المرتزقة ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « القوط » (٨٨) . وكان هؤلاء الجنود غير ملتزمين بالنظام العسكري ، خشنين قساة ، حققوا كل مايفونه بقوة السلاح . ويروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري الكلمات التالية عن لسان احد القرويين السوريين الذي جلب الى مدينة آمد لحم الصيد والخبز والثمار لبيعها : « جلبت لك ايها السيد كل خير من القرية ، فصادت جنود بيزنطة الذين كان ينهبون الفلاحين البؤساء أثناء تسكعهم على شكل عصابات صغيرة في هذه القرى . لقد ضربني قطاع الطرق هؤلاء دون رحمة او شفقة وسلبوني كل شيء كان معي . كان عندهم عرف قديم - خافوا من الفرس وانهبوا الفلاحين » (٨٩) . هكذا يخبر المؤرخ بروكوبيوس عن تصرفات الجنود البيزنطيين مع الفلاحين السوريين في منطقة ما بين النهرين .

أما يشوع العمودي فيتحدث في أسفاره التاريخية السورية (السريانية) عن أعمال النهب والاعتصاب التي مارسها الجنود البيزنطيون أثناء إقامتهم الطويلة في المدن السورية « للدفاع عنها ضد الفرس » . وتطلق الأسفار السورية على الزعماء المحليين المسؤولين عن توزيع إقامة الجنود البيزنطيين اسم « ريشاني » . انهم الطغمة المتنفة التي تضم كبار الموظفين والتجار وملاكي الأراضي . « وكان هؤلاء الرؤساء (الريشاني) المسؤولون عن توزيع إقامة الجنود البيزنطيين يمدون أيديهم طلبا للرشوة . وبما انهم كان يحصلون على الرشوة من الجميع ، لم ينج أحد منهم ، حتى انهم كانوا يرسلون جنودا آخرين الى اولئك الذين سبق وارسلوا اليهم جنودا ليقيموا عندهم » (٩٠) . كذلك ارسلوا بعض الجنود ليسكنوا في بيوت رجال الدين ، الذين كانوا قد حصلوا على براءة تعفيهم من هذه الفريضة . وبما ان الطغمة المتنفة في المدينة هي التي تقود عملية اسكان الجنود البيزنطيين ، فقد وجدت ان من الضروري الرأفة ببيوت الاغنياء والوجهاء والنبلاء . ويتلخص يشوع العمودي حديثه قائلا : « جاء هؤلاء (الجنود البيزنطيون) كمنقذين لنا وبهدف مساعدتنا ، لكنهم حيثما دخلوا وايضا خرجوا سلبونا وسرقونا ، فلا فرق بينهم وبين الاعداء » (٩١) . هذا القتاب المر الموجه من السوريين الى المستعمرين البيزنطيين على لسان يشوع العمودي تتضح اسبابه في الوصف التالي الذي قدمه ذلك المؤرخ عن سلوك وتصرف افواج الجيش البيزنطي : « كان هؤلاء الجنود القوط يطردون الفقراء من فراشهم كي يناموا في مكانهم . اما اصحاب البيوت فكانوا ينامون على الارض حتى في الايام الباردة . وكان الجنود يطردون السكان ويرغمونهم على مفادرة منازلهم ، ثم يدخلونها ويسكنون فيها وحدهم . وكانوا ايضا يسوقون مواشي الناس بالقوة كفنائهم او كصيد ، كما يخلعون الملابس عن اجساد الناس ويرتدونها . اما البعض الآخر ، فيضربونه ضربا مبرحا لاتفه الاسباب . وكان هؤلاء الجنود يتشاجرون مع اناس آخرين في الشوارع ويكيلون الشتائم لهم دون مبرر . لقد سرقوا كل شيء علانية ودون خجل او حياء ، بما في ذلك الرزق القليل المخصص للاكل والوجود لدى بعض الناس في القرية او في المدينة . هاجموا الكثيرين عند مفارق الطرق . اقاموا مع الحرفيين في حوانيتهم ، لان المنازل والفنادق في المدينة لم تكن كافية لاسكانهم . كانوا على مرأى من الجميع يفتصبون النساء في الشوارع والبيوت . وكانوا يسلبون النساء المجائز والارامل والفقيرات الزيدة والحطب والملح وغيره من المواد ، كما يبعدونهن عن اعمالهن كي يبقين في خدمتهم . وبصورة عامة كانوا يضاقون الجميع - الصغار والكبار - (الفقراء والاغنياء) ، فلم ينج احد من شرهم » (٩٢) . لا يحتاج هذا النص الى تعليق خاص ، حيث من السهل ادراك سخط السكان السوريين على الجنود البيزنطيين البرابرة من خلاله .

بهذا الشكل التعسفي كانت الدولة البيزنطية المستعمرة تبتز الضرائب من السكان السوريين ، وبهذه الصورة الوحشية كانت قواتها العسكرية البربرية تحصل على سكنها وطعامها . لكن الحكومة البيزنطية ، عندما يتهدها الخطر الخارجي كانت تسعى الى تهدئة غضب السكان السوريين بتعويضهم عن بعض الخسارة . ففي سنة ٥٠٣ عندما كان الملك الفارسي قباذ يهدد مدينة الرها السورية بالاحتلال ، اعطى القائد البيزنطي أريوبند الى سكانها منحة مالية بمقدار ٣٠٠ دينار (٩٣) . لكن مثل هذه المنح المالية لم تهدئ من غضب السكان السوريين ، بل اضحى استياء الناس وتحفزهم للتمرد يثير القلق لدى السلطات البيزنطية الاستعمارية . وفي سنة ٥٠٦ وصلت الجماهير السورية الكادحة الى حالة شديدة من البؤس . ويذكر يشوع العمودي أن في تلك السنة عسكر القائد البيزنطي رومانوس مع قواته في مدينة الرها السورية . ورغبة منه في مهادنة السكان والتزلف اليهم ، قام بتوزيع الصدقات على الفقراء . واخذ الامبراطور انستاسيوس بعين الاعتبار الوضع المأساوي للمنطقة (بسبب استمرار الحروب على اراضيها) ، فأمر بإلغاء الضريبة النقدية (الجزية) centeleia ، مما بعث الفرح والسرور لدى جميع « السادة القرويين » ، فباركوا الامبراطور ومجدوه (٩٤) .

هذا الاعفاء من الضريبة افاد طبقة واحدة فقط هي طبقة الملاكين المتوسطين « السادة القرويين » ، ولذا ابتهجوا وحدهم بهذا الاجراء . وبنتيجة ذلك حصل استياء كبير لدى « بسطاء الشعب » (الفقراء) . لقد تضرر الشعب البسيط الفقير وصرخ قائلاً : « ليس من العدل ان تسكن عندنا أفواج بيزنطة ، وليس عند السادة القرويين » (الملاكون المتوسطون الذين نالوا مساعدة باعفائهم من دفع الضريبة) . لقد كان غضب الجماهير الفقيرة عارماً ، مما اضطر الحاكم البيزنطي (الايبارخوس) ان يأمر بتلبية طلبهم . وعند بدء التنفيذ (اسكان الجنود البيزنطين في منازل السادة القرويين - الملاكين المتوسطين) اجتمع جميع الاغنياء والوجهاء (رورباني) في المدينة وتوجهوا الى الدوكس رومانوس وطلبوا منه : « أن يأمر معاليه بما يجب ان يحصل عليه في الشهر كل جندي بيزنطي ، كيلا يسلب الاغنياء عند دخول الجنود الى منازلهم بالشكل الذي كان يسلب فيه البسطاء . وقد لبي الدوكس طلب الاغنياء ، فأمر ان يصرف لكل جندي مقدار معين من السمن في الشهر ، ٢٠٠ ليتر من الحطب ، سرير مع فراش يتسع لاثنتين » (٩٥) .

ويتابع يشوع العمودي قائلاً : « عم السخط بسطاء الشعب » . وبما أن الضريبة الغيت عن السادة القرويين (الملاكين المتوسطين) الذين ابتهجوا من ذلك الاجراء ، فينبغي الافتراض ان السخط والاحتجاج قد اعلن من قبل الفلاحين الفقراء ، الذين

بقوا يتحملون عبء الضريبة العينية واقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم . كما أعلن الاحتجاج ايضا الحرفيون وغيرهم من سكان المدن الفقراء ، حيث اسكن الجنود البيزنطيون في منازلهم وحوانيتهم (٩٦) .

كان الوضع يهدد بخطر تمرد الجماهير الكادحة ، فاضطرت السلطات البيزنطية ان تستجيب لمطلبهم . لقد امر الحاكم البيزنطي كاليوبا باسكان الجنود في منازل الاغنياء ايضا . لم يتقبل الاغنياء وكبار الملاكين هذا القرار بارتياح . وبما ان الظروف لم تسمح لهم بالعمل على الغاء قرار الابرارخوس كاليوبا ، فقد توجهوا الى القائد (الدوكس) رومانوس ورجوه ان يحد من طلبات جنوده ، فوافق على طلبهم (٩٧) . وهكذا حينما يمس الضرر مصالح الاغنياء وكبار الملاكين كانوا يسعون بشتى الوسائل للتخلص من ذلك ، في حين لم يهتموا لاعتداء الجنود البيزنطيين على منازل الفقراء وارزاقهم . لكن السلطات البيزنطية ، على ما يبدو ، كانت عاجزة عن وضع حد لتصرفات الجنود السيئة . فالجنود البيزنطيون الذين اعتادوا على السرقة والنهب عاقبوا قائدهم رومانوس وثاروا منه ، لانه حاول وضع حد لسرقاتهم . لقد داهموا منزله وارادوا قتله ، لكنه افلت من ايديهم وهرب من السطح الى منزل اخر . ومنذ ذلك الحين (يقول يشوع العمودي) لم يجرؤ احد من القادة على توجيه اية كلمة للجنود البيزنطيين ، بل عاشوا حيثما رغبوا وكيفما ارادوا (٩٨) .

وازدادت اوضاع المواطنين السوريين سوءا ، لان القائد البيزنطي الاعلى Magister militum جمع كافة الجيوش في مدينة الرها (في نيسان سنة ٥٠٦) استعدادا للهجوم على الفرس . لم يقطن الجنود البيزنطيون في المدينة فحسب ، بل اسكنوا في جميع القرى المجاورة والاديرة الواقعة في الضواحي . كان هؤلاء الجنود يعيشون فسادا في المدينة ، يسكرون ، يتشاجرون ، يقتلون بعضهم بعضا ، يواصلون تعذيب السكان واهانتهم وتشويه سمعتهم والاعتداء عليهم (٩٩) .

لم يعد سكان الرها يتحملون تصرفات الجنود البيزنطيين السيئة . ويخبرنا يشوع العمودي (بحسن نية) ان سكان المدينة ارتكبوا « شيئا غير لائق » . ذلك ان بعض « الوقحين » الذين كانوا بين ظهرائي سكان الرها قد تجرؤوا واقدموا على أشياء غير لائقة ومخالفة للاعراف . كما ان « التعبير عن التذمر من القائد البيزنطي قد كتب في اعلانات علقت سرا في الاماكن العامة داخل المدينة (١٠٠) . كان في مدينة الرها مجموعة من الاشخاص الذين يدينهم المؤرخ يشوع العمودي ، لانهم قرروا الاعراب عن السخط وعدم الرضى عن اعمال القائد العسكري بصورة مكتوبة . لقد كتبوا المناشير ولقافات الرق وعلقوها في اماكن « معروفة » أي في الاماكن التي يتجمع فيها الناس بصورة دائمة . كان ذلك عبارة عن منشورات احتجاج من نوع خاص . لم يعرف مضمون تلك

المنشورات ، لكن معظيات كثيرة تشير الى انها كانت نمبر عن استياء الجماهير الكادحة وغضبهم . لم يظهر القائد البيزنطي كيليروس غضبه ولم يبحث عن فعل ذلك ، كما انه لم يفكر بسوء نية تجاه المدينة ، بل سعى الى مغادرة الرها بأسرع وقت ممكن (١٠١) . ويفهم من كلام يشوع العمودي ان القائد كيليروس لم يعاقب سكان الرها نظرا لطبيعته اللينة . اما واقع الحال فيدل على انه اصيب بالهلع والخوف ، بسبب المشاعر المتوترة التي كانت سائدة في المدينة واوشكت على اعلان التمرد والثورة .

يمكن النظر الى كتابة مناشير الاحتجاج والتذمر وتعليقها في الاماكن العامة كعمل قام به « بسطاء المدينة » ، الذين بضغط منهم جعلوا الحاكم البيزنطي (الايبارخوس كاليوبا) يفرض اسكان الجنود في بيوت الاغنياء . لا شك في ان الاحتجاج انطلق من الحرفيين ، فلاقوا مساندة من الفلاحين الذين عانوا ايضا من اسكان الجنود البيزنطيين في منازلهم . على اية حال كانت النتيجة ان امر كيليروس بابعاد الجنود واخراجهم من مدينة الرها ، خوفا من تمرد سكانها ضده . وفيما بعد تذكر هذا الدرس جيدا ، حيث انه لم يجرؤ على الدخول بجيشه الى مدينة الرها اثناء مروره ثانية بجوارها (في اواخر سنة ٥٠٦) . ويبدو ان كيليروس وكاليوبا قد ابلفا المسؤولين في العاصمة البيزنطية عن تدمير الشعب السوري واستيائه في منطقة ما بين النهرين ، بسبب الاضرار التي لحقت به من جراء الحرب البيزنطية - الفارسية . وعلى هذا بعث الامبراطور انستاسيوس برسالة الى القائدين البيزنطيين « مفعمة بالحناء والعطف تجاه منطقة ما بين النهرين بأسرها » . تلك الرسالة اذنت للقائدين بتخفيض الضريبة عن منطقة ما بين النهرين السورية حسبما تقتضي الضرورة . وقرر الدوكس والايبارخوس البيزنطيين الغاء كامل الضريبة على سكان مدينة آمد ، والغاء نصف الضريبة عن سكان مدينة الرها ، كما اعلموا الامبراطور خطيا بهذا القرار (١٠٢) . وكان الهدف من هذا الاجراء تهدئة غضب السكان السوريين وتخفيف استيائهم من ابتزاز الضرائب وثقل الفرائض . و « الحناء والعطف » من جانب الامبراطور البيزنطي تجاه المواطنين السوريين في منطقة ما بين النهرين كانت الغاية منها ايضا انعاش القوة الاقتصادية لسكان المنطقة ، الذين انهكتهم الحروب والامراض وسنو القحط ، كي يتمكنوا من دفع الضرائب فيما بعد الى خزانة الدولة البيزنطية المستعمرة .

ج - ادارة المدن السورية :

كانت ادارة المدينة والقرى التابعة لها في منطقة ما بين النهرين السورية برئاسة حاكم بيزنطي يحمل لقب « ايفيمون » باليونانية Igimon و « ديان » بالسرانية . وتركزت في يد هذا الحاكم رئاسة الوظائف المالية والادارية والامنية والقضائية والخدمات العامة . وكان الحاكم لا يجمع الضرائب مباشرة من الفلاحين العاملين في

الأرض (وهم الكولون الحر والكولون غير الحر والمستأجرون) ، وانما يجمعها بواسطة « السادة القرويين » الملاكين المتوسطين . وتحدث الاسفار التاريخية السورية (السريانية) عن جمع الضرائب على يد الحاكم او نائبه . ففي سنة ٤٩٩ - ٥٠٠ يخبرنا يشوع العمودي ان الحاكم البيزنطي ابتز الضريبة من « السادة القرويين » ، بعد ان عذبهم اشد أنواع العذاب (١٠٢) . والحديث هنا يدور حول الضريبة النقدية المفروضة على الفلاحين الذين يعملون في اراضي هؤلاء الملاكين المتوسطين (التي تسمى باليونانية « سينتليا ») ، لان الحاكم ارسل ذلك المال المجموع « الذهب » الى العاصمة البيزنطية . كذلك كان سكان المدن يدفعون الضرائب النقدية التي تجمع بواسطة جهاز الموظفين الموجود تحت تصرف الحاكم . وكان الحاكم مسؤولا عن اداء المبلغ المفروض على منطقته الى خزانة الدولة المركزية في الوقت المحدد . وكانت السلطة المركزية في العاصمة البيزنطية صاحبة الصلاحية في تخفيض هذا المبلغ ، او اعفاء المنطقة من دفعه وفي الحالات التي لا تسمح فيها الظروف المحلية الصعبة بدفع الضريبة كاملة ، كان اصحاب الاملاك الزراعية الكبار والمتوسطون يرسلون وفدا يمثلهم الى القسطنطينية ليتوسط لدى الامبراطور بتخفيض مقدار الضريبة او اعفائهم من دفعها . وكان يسافر مع ذلك الوفد عادة الاسقف « حامي المدينة » وشفيعها عند الامبراطور (١٠٤) . لكن هذا التدخل من جانب الاساقفة في شؤون المال والخزانة لم يكن مقبولا لدى السلطة المركزية في اغلب الاحيان . وكان الامبراطور البيزنطي يوافق في بعض الحالات الاستثنائية على تخفيض الضرائب او الاعفاء من دفعها لمدة محددة . لكن القحط والجوع الرهيب الذي ألم بمنطقة ما بين النهرين السورية في سنة ٥٠٠ ميلادية لم يكن مبررا كافيا بالنسبة للامبراطور كي يعيد المال (الضريبة المدفوعة) الى تلك المنطقة المفقرة . وبطمعه وجشعه تمكن الامبراطور انستاسيوس من جمع مبالغ كبيرة من المال (حوالي ٣٢٠ كينتينارا من الذهب) ، فكان بشهادة معاصريه « اغنى امبراطور على الاطلاق » .

وكانت جميع الوظائف القضائية تتبع لهذا الحاكم (الايفيمون - الديان) ويحدثنا يشوع العمودي عن عمل الحاكم الكسندروس (٤٩٥ - ٤٩٧) في مجال القضاء . لقد كان هذا الحاكم يمثل استثناء نادرا في دوائر الادارة البيزنطية . ففي يوم الجمعة من كل اسبوع كان الحاكم الكسندروس يجلس في المبد الكبير « ويقضي بين الناس مجانا » (١٠٥) . فهو يرفض النفاق الذي كان من سمات الموظفين البيزنطيين ، ولا يعطي الافضلية للاغنياء والاعيان . ولهذا السبب ، يقول يشوع العمودي : « انتعش المظلومون ، تمززت قوتهم ، فاصبحوا بمساعدته قادرين على مجابهة الظالمين والنهابين (١٠٦) .

ويخبرنا زكريا الميتيليني (الملطي) ايضا عن حاكم اخر في مدينة آمد السورية فيقول : « في هذا الوقت كان فيليسيسيموس دوقا . وهو رجل قوي حكيم ، لا يطمع

بالمال ولا يهتم به ، بل كان صديقا حقيقيا للفلاحين والفقراء « (١٠٧) . وتشير هذه الاستثناءات والحالات الفريدة الى ان المحاكم البيزنطية كانت تقف في اغلب الاحيان الى جانب الاغنياء والاقوياء ضد الفقراء والضعفاء . ويبدو ان « صديق الفلاحين والفقراء » كان يرفض الرشاوي التي اعتاد على ابتزازها جميع الحكام والقضاة . وكان الحاكم الكسندروس يقضي ايضا « بدون مقابل » ، مما جعل قراراته « عادلة » ، لانها تتخذ من قبله « بصرف النظر عن مكانة الاشخاص » . ولم يكن الروتين في قضايا المحاكم اقل شرا من تعاطي الرشوة . فالأورخ يشوع العمودي يقول : « كان الحاكم الكسندروس يحل القضايا التي اودعت في المحكمة منذ خمسين عاما ، ففقد المدعون الامل في حلها منذ زمن طويل » .

وكانت المحكمة في مدينة الرها السورية تعقد جلساتها في احد المعابد الواسعة ، الذي يمكن ان يستوعب اعدادا كبيرة من افراد الشعب . وكان هذا المعبد - مكان المحكمة - مريحا ومناسبا لمثل هذا العمل الاجتماعي . ولم ينظر الحاكم وحده في القضايا ، بل يجب ان يكون الى جانبه مساعدون وموظفون من مكتبه . لقد جاء في اسفار يشوع العمودي : « ان الشكاوى كانت تقدم ، وكانوا يقضون بها » . حديث المؤلف عن هيئة المحكمة بصفة الجمع يدل على وجود المساعدين الذين كان الحاكم بالتعاون معهم ينظر في القضايا .

واتخذ الحاكم الكسندروس اجراء اخر (في سنة ٤٩٧) يدل على سيطرة الخوف على المواطنين السوريين من الحكام البيزنطيين . لقد وضع هذا الحاكم امام مقر قيادته صندوقا بفتحة كتب عليه : ان الحاكم يقترح على أي شخص يرغب في الاعلام عن امر ما ويخشى ذلك حضوريا ، ان يكتب ما يريد قوله ويلقيه في هذا الصندوق دون خوف (١٠٨) . وكان ذلك الحاكم البيزنطي يحاول عن طريق الحصول على الاخبار السرية ، ومن خلال المحاكمات العلنية الخالية من المحاباة ، التخفيف الى حد ما من استياء فئات الشعب الدنيا وسخطها . وبهذا التدبير علم الحاكم بقضايا كثيرة ، لان الكثيرين من الناس كانوا يكتبون ويلقون في صندوقه مختلف انواع الشكايات والاخبار السرية . لكن هذه المحاولات من جانب هذا الحاكم ، الهادفة لفرض « التجرد والانصاف » ، قد خمدت بسرعة ، لان الكسندروس نحي من منصبه في العام التالي (اي في سنة ٤٩٨) (١٠٩) .

وكان ذلك الحاكم البيزنطي يترأس السلطات الامنية في مدينة الرها والمناطق المجاورة لها ، كما كان يراقب جميع اعمال الحرفيين في مشاغلهم . فلقد أمر بهدم وازالة الحوانيت والدكاكين التي اقاموها في اماكن غير مناسبة ، كما طلب من الحرفيين

ان يعلقوا على مشاغلهم وحوانيتهم في ايام الاحاد (منذ طلوع الفجر) الصليب المضاء بخمسة فوانيس (باليونانية فانوي) Phanoi . كانت الرقابة على الانتاج الصناعي وبيعه امرا ضروريا من أجل جباية الضرائب ومعرفة قدرة الحرفيين (الصناع) على دفعها . وكان الموظفون الماليون الخاضعون للحاكم سيئون استخدام وظيفتهم ويجبون الضرائب بجشع وقسوة وتعسف .

كان الاهتمام بمرافق المدينة ونظافتها ملقى على عاتق الحاكم أيضا . لكن العناية بنظافة المدينة لم تكن كما يجب ، بدليل حدوث الاوبئة المتكررة . واهتم الحاكم (الايغيمون) أيضا بتموين المدينة ، وخاصة بالخبز . ولكن الادارة البيزنطية لم تستطع معالجة هذه المهمة جيدا ، اكان ذلك في العاصمة أم في الولايات (١١٠) . وتؤكد الاسفار التاريخية السورية على ان السكان السوريين في منطقة ما بين النهرين ، الذين نهبتهم الحكومة وكبار الملاكين ، قد تعرضوا بصورة دورية الى مجاعات مرعبة ، كما ابدت الحكومة البيزنطية عجزا كاملا في مكافحة هذه المجاعات (١١١) .

للبحث صلة



المصادر المراجع

- (١) Nau. Etude sur les parties inédites de la chronique ecclésiastique attribuée à Denys de Tellmahre. Revue d'Orient Chrétien, 1897, t. II, P. 41.
- (٢) Catalogum Codicum Orientalium Bibl. Apost. Vaticanae, t. III, N° CLXII, P. 329.
- (٣) Joseph Simonius Assemanus. Bibliotheca Orientalis Clementino Vaticana, Romae, 1719, t. II, pp. 97-98.
- (٤) Agapius de Membidg. Texte arabe et traduction française de Vasiliev. Paris, 1912, P. 424.
- (٥) Bibliotheca Orientalis, t. I, cap. 26, pp. 26, 283.
- (٦) Chronique de Joshue le Stilite écrite vers l'an 515. Texte et traduction par l'abbé Paulin Martin, Leipzig, 1876. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlands, B. VI, N° 1.
- (٧) The chronicle of Joshua the Stilite, composed in Syriac A. D. 507. With a translation into English and notes by W. Wright, Cambridge, 1882.
- (٨) Pigulevskaia, N. V., Mesopotamia in V-VI centuries, 1940
- (٩) Wright, The Chronicle of Joshua ..., P.9.
- (١٠) Nau. *ibidem*.
- (١١) Gelzer. Josua Stilites und die damaligen Kirchlichen parteien des Ostens. Bysantinische Zeitschrift, B.I, 1892, P.47.
- (١٢) Barhadbesabba Arbaya, Cause de la fondation des écoles, Patrologia Orientalis, t. IV, P. 319.
- (١٣) Wright, The cronicle of Joshua ..., P.28.
- (١٤) Nöldeke. Zeitschrift d. Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, B. 30, 1876, P. 352.
- (١٥) Merten. De bello persico ab Anastasio gesto. Dissertatio historica Jena, 1905. — Rose, Anastasius I, Halle, 1882.

- (١٦) نيتا بيفوليفسكايا ، الشرق الأدنى وبيزنطة والسلاف ، لينينغراد ١٩٧٦ ، ص ٧٠ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص ٧٠ .
- (١٨) المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨٥ .
- (١٩) Codex Justinianus, XI. 62, 8, Ed. Kruger, P. 448.
- (٢٠) Procopius, De aedificiis. I - II, cap. 7, Ed. Dindorfii, t. III, P. 230.
- (٢١) Plinius, Historia naturalis, l. VI, cop.9.§ 1.
- (٢٢) Excavations at Dura - Europus, New Haven, 1929-1936.
- (٢٣) Dussaud René, Topographie historique de Syrie antique et medievale, Pl. XIV, 1929. - Poidebard, La trace de Rome dans le desert de Syrie. Atlas, Le limes romain, Pl. CXL, AB - ef, Paris, 1934.
- (٢٤) Sachau, Reise nach Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883, P.189.
- (٢٥) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٥٢ ، ص ٤٩ .
- (٢٦) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t. III, PP. 228-229.
- (٢٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨٥ ، ص ٨١ .
- (٢٨) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t.III, P.230.
- (٢٩) Texier, L'architecture byzantine, London, 1864, PP. 199-209.
- (٣٠) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٧ .
- (٣١) Procopius, De aedificiis, I-II, caq. 7, t.III, P. 229.
- (٣٢) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٢ .
- (٣٣) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ .
- (٣٤) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ٦٦ ، ٨١ .
- (٣٥) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٢ ، ٤٣ .
- (٣٦) Procopius, De bello Persico, I-II, Cap. 12, Ed. Haury, 1905, t.I.P.206.
- (٣٧) العمودي ، فقرة ٢٠ ، ص ٢٤ .
- (٣٨) العمودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢ .
- (٣٩) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori (Mytilenensis) volgo adscripta, I, VII, caq. 4 , Corpus Scriptorum christianorum orientalium ,

Scriptores Syri, Series tertia, t. VI, f.2, Ed. W. Brooks, t. II, P. 29.
Parisiis, 1921.

Payne - Smith. Thesaurus Syriacus, Cod. L, § 73, P. 19. (٤٠)

الممودي ، فقرة ٢٠ ، ص ٢٥ . (٤١)

Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, Cod. I, § 98, P.25. (٤٢)

الممودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢ . (٤٣)

Zacharias Mytilenensis, I. 7. cap. 6, t. II, pp. 36-37. (٤٤)

أ.ب. روداكوف ، دراسات في الحضارة البيزنطية من خلال كتب السيرة اليونانية ، موسكو ١٩١٧ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ . (٤٥)

Ostrogorsky, Lohne und Preise , Byzantinische Zeitschrift , 1932,
B. 32, H. II, PP. 297 - 300.

Theophanes, Chronographia, Ed. de Boor, Lipsiae, 1883, 9. 150. (٤٦)

Zacharias Mytilenensis, I. 7, caq. 6, t. II, P. 37. (٤٧)

Ibidem. (٤٨)

Ibidem. (٤٩)

الممودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢ . (٥٠)

Chronicon Edessenum. Corpus Scriptorum christianorum orientali-
um. Scriptores Syri, Ser, Ser. III, t. 4, text, P.2, vers. , P.1. (٥١)

Ibidem. (٥٢)

يشوع الممودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢ ، الترجمة الانكليزية ، ص ١٨ . (٥٣)

Chronicon Edessenum, text, P.2, vers., P.1. (٥٤)

الممودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢ . (٥٥)

المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٢ . (٥٦)

المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ص ٢٥ . (٥٧)

Codex Justinianus, XI, 62, 8. (٥٨)

Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 4, t.II, P. 25. (٥٩)

الممودي ، فقرة ٦١ . (٦٠)

المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ . (٦١)

- Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408. (٦٢)
- الممودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٥. (٦٣)
- Novellae, 80, cap. 2, P. 391. (٦٤)
- Wright. Chronicle of Joshua the Stylite, translation, P. 29. (٦٥)
- Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 6, P. 36 . (٦٦)
- Codex Justinianus, X, 27, 3, P.408. (٦٧)
- Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 6,P. 36. (٦٨)
- Cambridge Medieval History, 1911, t. I, P. 565. (٦٩)
- الممودي ، فقرة ٧٨ ، ص ٦٢-٧٤. (٧٠)
- بومياولفسكي ، حياة القديس سابا ، بطرس بورغ ، ١٨٩٠ ، ص ٤١٦ . (٧١)
- Gli statuti della Scuola di Nisibi, I, 4, Ed. Guidi, P. 183. (٧٢)
- الممودي ، فقرة ٤٤ ، ص ٢٩ . (٧٣)
- Pauly Wissowa. Collatio lustralis, IV, PP. 370-376 . (٧٤)
- Joannes Malalas, **Chronographia**, Ed. Dindorfius, 1831, P. 394. (٧٥)
- Zosimi Historia nova, Ed. Mendelssohn, Lipsiae, 1887, I. II, cap. 38, P. 96. (٧٦)
- Codex Theodosianus . Ed. Haenel, Bonnae, 1837, cc. 1313, 1315 , 1316, 1317. (٧٧)
- Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, L.I, § 116 , P. 32. (٧٨)
- Joannes Malalas, Chronographia, I. 16, P. 398. Evagrius . Historia ecclesiastica, I. III, cap. 39, Ed. Bidez et Parmetier, London, 1898. (٧٩)
- Chronicon Edessenum, P.8. (٨٠)
- الممودي، فقرة ٢١ ، ص ٢٦. (٨١)
- المصدر نفسه ، فقرة ٢١ ، ص ٢٦. (٨٢)
- المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٥. (٨٣)
- Procopius . De bello Persico, I. I, cap. 9, P. 41. (٨٤)
- الممودي ، فقرة ٥٤ ، ص ٥٢ . (٨٥)
- المصدر نفسه ، فقرة ٧٠ ، ص ٦٧ . (٨٦)

- (٨٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٣ .
- (٨٨) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ .
- (٨٩) Procopius. De bello persico, I. I, cap. 9, P. 41.
- (٩٠) العمودي ، فقرة ٧٦ ، ص ٨١ .
- (٩١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .
- (٩٢) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .
- (٩٤) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٤ .
- (٩٥) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٥ .
- (٩٦) المصدر نفسه ، فقرة ٩٥ ، ص ٨٦ .
- (٩٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٣ .
- (٩٨) المصدر السابق ، فقرة ٩٤ ، ص ٨٦ .
- (٩٩) المصدر السابق ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٧ .
- (١٠٠) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .
- (١٠١) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .
- (١٠٢) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨-٨٩ .
- (١٠٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩ ، ص ٣٥ .
- (١٠٤) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩ ، ص ٣٥ .
- (١٠٥) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٧) Zacharias Mytilenensis, t. II, P. 36.
- (١٠٨) العمودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٤ .
- (١٠٩) المصدر نفسه ، فقرة ٢٢ ، ص ٢٧ .
- (١١٠) Theophanes. Chronographia, P. 230, 20-Chronicon Paschal, P.608,3.
- (١١١) انظر اسفار يسوع العمودي .